وزارة الثقافة

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

المكتبة الثقافية
جامعة حرة
العدد ١٩٧

اللغة العربية
عبر القرون

بقلم

الدكتور محمود حجازى



أول مايو ١٩٦٨ الثمن ٣ قروش

المكتبة الثقافية
(جامعة حرة)
١٩٧

اللغة العربية

عبر القرون

بقلم
الدكتور محمود حجازى

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تقديم

هذه محاولة متواضعة لرسم القسمات البارزة فى تاريخ اللغة العربية فى رحلتها الحافلة عبر القرون ، وهذه الصفحات عرض موجز لهذا الموضوع الممتع الزاخر بالصعاب المنهجية والقضايا العلمية ، وفيها ثغرات وجوانب قصور تعكس قلة الأبحاث الجزئية فى الموضوعات قيد البحث ، ولكننى آمل أن يجد القارىء الكريم فيها ما ينشده من الفكرة الشاملة والعرض العلمى البسيط .

الجيزة فى يناير ١٩٦٨م

محمود فهمى حجازى

مدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة

الفصل الاول

اللغة والتطور اللغوى

اللغة نظام من الرموز الصوتية ، وقد عرفها اللغوى العربى ابن جنى ت ٣٩٢ هـ بقوله : حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . وهذا التعريف دقيق ويتفق فى جوهره مع عناصر تعريف اللغة عند الباحثين المعاصرين فهو يؤكد - من جانب - الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية ويبين أيضا أن وظيفتها الاجتماعية هى التعبير ونقل الفكر في اطار البيئة اللغوية ، ويذكر كذلك أنها تؤدى وظيفتها فى مجتمع بعينه ، فلكل قوم لغتهم . هذا وقد عرف البحث اللغوى الحديث فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين تعريفات مختلفة للغة تناولتها من وجهات نظر عديدة ، ولكنها تتفق في ابراز الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية وفى ايضاح الوظيفة الاجتماعية للغة ، ومن هنا تنجم الأسس المنهجية للبحث اللغوى بمناهجه المختلفة ، فالدراسة اللغوية تعرف قطاعين متكاملين : الأول دراسة البنية اللغوية في جوانبها الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية ، والثانى بحث ارتباط هذه البنية بوظيفتها الحيوية فى المجتمع ، ويدخل فى دراسة وظيفة اللغة ايضاح أثر الجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية على الحياة اللغوية وتطورها ، فدراسة بنية اللغة ووظيفتها فى المجتمع دراسة نابعة من طبيعة اللغة وحياتها .

فاللغة أولا وقبل كل شيء ـ نظام من الرموز ، ومعنى هذا أنها تتكون من عدد كبير من الجزئيات التى تنتظم بعلاقات محددة في سياق أو نظام محدد ، وأقل هذه الرموز الوحدة الصـوتية تليها الكلمة ثم تتكون الجملة بالتالى من الكلمات وقد رتبت فى سياق متعارف عليه فى البيئة اللغوية ، وقيمة الرمـوز ليست قيمة ذاتية طبيعية بل هى مستمدة من الاتفاق العرفى عليه ، فالرمز اللغوى يستمد قيمته من الاتفاق عليه بين الاطراف التى تستخدمه فى تعاملها . فهو يمثل أداة الاتصال بين المتحدث أو الكاتب من جانب وبين المستمع أو القارىء من جانب آخر .واللغة هنا هى هذه الرموز التى تنقل التأثير من المؤثر الى المتلقى ، وهذا معناه وجود اتفاق بين المؤثر والمتقى على استخدام هذه الرموز اللغوية بقيمها العرفية أو بعبارة أخرى وجود اتفـاق بينهما على ترجمة هذه الرموز الصوتية الى أشياء يدركها الجهاز العصبى .

فالجهـاز العصبى للمتكلم يسـتجيب لمؤثرات مختلفة خارجية كانت أو داخلية ، فيصدر أوامره الى الجهـاز النطقى وهـذا يرسـل بدوره هذا الأمر فى صورة موجات صوتية ذات خصائص خاصة ونسق محدد فيتلقاها الجهاز السمعى للمتلقى ناقلا اياها الى الجهاز العصبى له . وعلم اللغة ينظر الى هذه العملية باحثا طبيعة هذه الرموز الصوتية التى نقلت الفكرة أو الانفعال من المتحدث الى المتلقى ، رابطا هذا بالمعنى الذى تحمله هذه الرموز . فالدراسة الفيزيائية لخصائص هذه الرموز الصوتية لا بد وأن ترتبط بالمعنى وبكل ما يتعلق به كى تصبح هـذه الدراسة من علم اللغة .

والنظام اللغوى لايمكن أن يكون معلقـا فى الهواء أو هدفا فى ذاته ، ولابد أن يستخدم بطريقة أو بأخرى في مجتمع بعينه كى يكون لغة ، ومن الحقائق المعروفة أنه لا يوجد انسان يستخدم كل المعجم الذى تعرفه لغته وقصارى أكثر الناس معرفة باللغة أن يستخدم قطاعا

منها فى حديثه وتأليفه ، وهو فى ذلك مرتبط بعلاقاته الاجتماعية ومستواه الثقافي وضرورات عمله ، ومن هنا يجب في دراسة اللغة أن نحدد المستوى الذى يستخدم فيه النظام اللغوى الذى ندرسه ، ففى بعض المجتمعات تستخدم لغة للتعامل اليومى وأخرى للتعليم والثقافة وفى مجتمعات أخرى يستخدم قطاع من اللغة لأمور الحياة اليومية ويعرف التعبير الأدبى قطاعا آخر ، فهذان مستويان من مستويات استخدام اللغة ، وفى المجتمعات الأوروبية المثقفة يدور حديث المثقفين بلغة هى الفصحى في أصواتها وصرفها ومعجمها وان كانت أبسط منها في نحوها ، ويحاول كل مثقف الارتفاع عن اللون المحلى فى لهجته ليتوسل فى حديثه باللغة الفصحى ، هذه التى يعرفها حديث المثقفين وكتاباتهم ، وتستخدمها الادارة وأجهزة الاعلام والطبقات المترفة . هذا وقد حاول عدد من اللغويين تحديد مستويات الاستخدام اللغوى فى المجتمع الانسانى وباءت محاولتهم بعدم الدقة فكل مجتمع يعرف علاقاته ومستوياته اللغوية ولا يجوز أن نفرض تقسيما مسبقا على مجتمع ما ، وقصارى عمل اللغوى أن يشحذ ذهنه بدراسة مجتمعات لغوية كثيرة فى ملاحظة اللغة التى يدرسها وأن يحدد على نحو موضوعى معالم اللغة كنظام من الرموز الصوتية مع ربط هذا النظام بالمستوى الاجتماعى والثقافى الذى يستخدم فيه .

ففى بعض المجتمعات المعاصرة نلاحظ ارتباط لغة بعينها بجنس دون الآخر ، ففى النوبة المصرية والسودانية يستطيع معظم الرجال التعامل بالعربية ـ فاللغة العربية هى وسيلة التخاطب بين النوبيين فى تعاملهم مع غير النوبيين وهى اداتهم على المستوى الثقافى ، ـ رغم أن حديثهم بالعربية يجعلنا نعرف من طريقة نطقهم واستخدامهم لبعض الصيغ أن وراءه أساسا لغويا نوبيا ، أما حديثهم اليومى داخل ديارهم فبلغة اخرى هى النوبية التى لا يفهمها من العرب الا من تعلمها . واللغة النوبية لغة حامية ترتبط فى رأى كثير من الباحثين بأواصر القرابة مع اللغة المصرية القديمة ومع بعض اللغات فى الحبشة .

النساء فى المجتمع النوبى لا يختلطن بالمتحدثين بأبناء العربية ، ولذا لم تنتشر العربية بين نساء النوبة كانتشارها بين الرجال هناك . وفى مناطق مختلفة من المغرب العربى نلاحظ معرفة معظم الرجال البربر بالعربية ، أما النساء فيتحدثن دائما باللهجات البربرية المختلفة ومعرفتهن بالعربية قاصرة على من تعلم منهن التعامل بها فى أمور الثقافة والادارة . فى النوبة وفى المناطق التى يسكنها البربر فى المغرب وفى القرى القليلة التى لا تزال تتحدث بالآرامية في الشام والعراق يسود ازدواج لغوى . اللغة الأقدم - ونعنى بذلك اللغة التى سبقت الأخرى فى المنطقة - ظلت لغة الحديث والحياة اليومية اما اللغة الوافدة وهى العربية فتستخدم فى المجالات الثقافية والاجتماعية . والازدواج اللغوى فى الامثلة السابقة ازدواج بين لغتين مختلفتين تمام الاختلاف وهناك ازدواج من نوع آخر عندما تكون لغة الحديث مختلفة عن لغة الكتابة وكلاهما تمثل صورة أو قطاعا من لغة واحدة كما هو الحال بالنسبة للعالم العربى اليوم . فالازدواج اللغوى على هذا النحو ازدواج داخل اللغة الواحدة ، ولابد هنا من ادراك البعد الاجتماعى للغة أو للهجة التى ندرسها وتحديد طبيعة العلاقات اللغوية في المجتمع .

واللغة - كما نقول كثيرا - ظاهرة اجتماعية يدرجها الباحثون بين الظواهر الاجتماعية غير المادية ، فاللغة والدين والعادات كلها في هذا القسم من الظواهر . وهناك فرق بين بحث الظواهر المادية وبحث غير المادية ، فاذا اتجه باحث اليوم الى الهند لدراسة مجتمع من مجتمعاته الصغيرة فهو مطالب في دراسة الظواهر المادية بوصفها، وهو قادر على ذلك بمجرد التعرف عليها والتدقيق في معالمها ، ويدخل فى هذه الظواهر المادية : اشكال المساكن والازياء الشعبية وأدوات العمل وما شاكل هذا وذاك ، ولكن دارس الظواهر غير المادية يواجه مجموع ظواهر بحثه كنظام متكامل يؤدى وظيفته ،فعليه أن يلوذ بالصبر ويستعين بالجلد وهو يلاحظ آلاف الجزئيات المكونة للنظام

اللغوى أو العقيدى أو الأخلاقى . وعلى الباحث بعد تسجيل هذه العناصر المكونة أن يصنفها تصنيفا علميا ويبلورها فى شكل نظام متكامل يربط كل هذه الجزئيات ،وهذا منهج الباحث اللغوى فهو يلاحظ ثم يسجل ثم يصنف ثم يبلور محاولا بكل هذا اكتشاف بنية اللغة التى يدرسها فى اطارها الاجتماعى ، وشأن اللغوى فى هذا شأن عالم الاجتماع الذى يقرر طبيعة العلاقات فى المجتمع ـ كما هى لا كما ينبغى أن تكون ، فعلم اللغة علم أساسى يهتم بكشف الأبعاد الحقيقية للظاهرة اللغوية ، وليس هدفه ـ كما كان الحال فى الدراسة اللغوية قبل العصر الحديث ـ اصدار أحكام الصواب والخطأ ، بل هدفه الاسمى أن يقرر طبيعة هذه العلاقات فى واقعها الكائن أو الذى كان . ومن هنا يختلف المفهوم الحديث للبحث اللغوى عما يسميه البعض باسم «السياسة اللغوية» أو «تعليم اللغة» ، فاللهجات تدخل فى مجال علم اللغة لا لجمالها أو لقبحها بل انها شىء قائم وواقع محسوس ، فالباحث فى اللهجات القديمة أو الحديثة لا يفعل هذا بهدف الرفع من شأنها أو القضاء على الفصحى فليس هذا مجاله، وليست هذه طبيعة عمله . عالم اللغة يدرس اللهجات قديما وحديثا لانها ظواهر لغوية وجدت أو لا تزال موجودة ، وهو في هذا يقرر واقع الظواهر الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية فيها . وليس من عمل عالم اللغة أن يقبل ظاهرة أو يرفضها بل عليه أن يصف فى هدوء ويبلور فى عمق ، عليه أن يعمل فى موضوعية عالم الكيمياء الذى يحلل الماء فلايمدح الاكسوجين ولايذم الهيدورجين ، فعالم اللغة يحلل اللغة أو اللهجة أو المستوى اللغوى الذى يدرسه دون حب أو اعجاب ، كراهية أو نفور .

ومن هنا فان كل مستويات الاستخدام اللغوى تدخل فى دراسة اللغة ، ويبحث تاريخ اللغة كل مراحل اللغة من أقدم العصور الى الآن وكل مستويات استخدامها من لهجات وفصحى وما بين هذه وتلك ، والهدف هنا هو التحليل العلمى لا اصدار أحكام الاعجاب أو

الازدراء ، وقصارى جهد اللغوى أن يبلور عناصر النظام اللغوى فى المراحل المتتابعة للمستويات المختلفة والمتداخلة .

والتاريخ اللغوى شىء وتاريخ الخط شىء آخر ، وكثيرا مايحدث عند غير الباحثين فى اللغة ليس بين اللغة والكتابة ، فاللغة رموز صوتية منطوقة مسموعة ، والكتابة فى أفضل صورها لاتعدو أن تكون محاولة للتعبير عن الواقع الصوتى ، وهذه المحاولة دقيقة في حالات نادرة ودقتها نسبية ،الكتابة محاولة لنقل الظاهرة الصوتية السمعية الى ظاهرة كتابية مرئية ، أو محاولة نقل اللغة من بعدها الزمنى المنطوق الى بعد مكانى مرئى . مادة البحث اللغوى اذن هى اللغة فى صورتها الصوتية وليست الكتابة فى أشكالها ولا حروف الطباعة فى أنماطها . فالخط العربى شىء يعبر به عن الواقع الصوتى للعربية والفارسية والاردية وكتبت بها التركية ، وهو فى كل هذا محاولات لتدوين الواقع الصوتى تتفاوت دقتها من لغة لأخرى . فالخط العربى شيء واللغة العربية شيء آخر ولكل خط امكانياته التعبيرية الخاصة به ،فالخط العربى لا يعرف كتابة الحركات القصيرة على نحو ملزم رغم أنها عناصر فى النظام الصوتى ، ولا يهمنا هنا أكتب الخط العربى هذه الحركات أم لا ، فهذا أمر خاص به ، ولكننا ندرس الحركات القصيرة لوجودها في الواقع الصوتى ، نحن نكتب « في المدرسة » على النحو الذى نراه ، والواقع الصوتى هنا نسمعه فى فاء ثم كسرة ثم لام ... ، أى أن الياء المكتوبة هنا لا تعبر كما اعتدنا عن حركة طويلة والألف هنا ألف وصل لاتنطق فى السياق، فلكل خط طبيعته التى تمليها ظروفه الخاصة ، وليست دراسة تطور الخط هدف علم اللغة رغم ان الخط يعد أحيانا وسيلتنا الوحيدة لمعرفة اللغة .

هذا وللتطور اللغوى شقان : أولهما التطور فى بنية اللغة (التطور الداخلى) ، والثانى مجالات الانتشار والاستخدام اللغوى (التطور الخارجى) . وهذان الشقان نابعان من الطبيعة الرمزية

الصوتية للبنية اللغوية ومن الوظيفة الاجتماعية لها . والجانبان متكاملان يفسر أحدهما الآخر ، ولنقف قليلا عند نطق كلمة «القرآن» وكلمة «القاهرة» فى حديث من ينطق كلمة « قال » وكلمة « قرش » بهمزة ودون قاف فصحى . ان هذا المتحدث لا يمثل هنا نفسه بل يمثل خاصية من خصائص لهجة القاهرة أو بعض اللهجات العربية الاخرى . ونحن نعلم أن القاف القديمة تحولت فى الفاظ لهجة القاهرة الى همزة وهذا قانون صوتى مطرد ، والقوانين الصوتية لاتعرف الشذوذ ولا التهاون فهى مطردة دائما ، فلم لم يسر قانون تحول القاف الى همزة في لهجة القاهرة على القاف في « القرآن » و «القاهرة» ؟ الواقع أن هذا يفسر بمستويات الاستخدام اللغوى فالمتحدث بالعامية لم يسمع الكلمتين الا فى المسجد أو من قراءة المتعلمين ، ولايسمعهما اليوم الا على المستوى الثقافى ، أى أن الكلمتين قد استخدمتا وبقيتا على المستوى الفصيح ولم تسمعا فى غير هذا المستوى ، فقد حلت كلمة «مصر» فى الحديث اليومى محل كلمة «القاهرة» وحلت كلمة «المصحف» محل كلمة «القرآن» فاذا قلنا ان القانون الصوتى مطرد لايعرف الشذوذ وان القاف فى العربية الفصحى يقابلها همزة فى لهجة القاهرة فاننا لا نفسر وجود القاف فى « القرآن » و «القاهرة» فى نطق أبناء القاهرة فى لهجتهم العامية ألا بالنظر الى مستوى الاستخدام اللغوى ، فالواقع أن الكلمتين انما استعيرتا من الفصحى الى اللهجة المحلية فاحتفظتا بالقاف بعد أن كانت لهجة القاهرة قد هجرت القاف الى الهمزة ، فواجب اللغوى أن يدرس نظام اللغة ومستوى استخدامها وأن يدخل البعد الأخير في تفسيره للظواهر اللغوية .

ان بنية اللغة تتطور ، ونطق المتحدث بصوت ما لا يتم مرتين على نفس النحو بنفس المعالم والخصائص التشريحية أو الفيزيائية ، فكيف نطقنا له ملايين المرات ! ان مدى الاختلاف قليل عند الفرد الواحد ، ولكن ماذا يحدث لو استمر فرد ذو مكانة مرموقة في النطق

على نحو جديد بصوت من الاصوات أو فى استخدام كلمة ابتكرها هو أو بعثها هو من سبات معجمى عميق أو استخدم أسلوبا جديدا فسمعه الناس واعجبوا به عن وعى أو دون وعى ، النتيجة حدوث تطور لغوى . فالتطور اللغوى أساسه الاستخدام الفردي للغة ، فاذا كان هذا المستخدم ذا مكانة اجتماعية أو وظيفية أو ثقافية مرموقة وقلده المقربون منه أو من أرادوا التقرب منـه ثم اتسـعت دائـرة المقلدين شيئا فشيئا أصبح هذا التجديد اللغوى نمطا لغويا سائدا وعرفا ملزما وأصبحت الصورة الناجمة هى اللغة المتعارف عليهـا وانقرضت الصورة القديمة أو توارت . لقد تطور نطق الراء الفرنسية الى نطقها الباريسى المعروف الذى يجعلها قريبة من الغين العربيـة عند احد رجال البلاط الملكى الفرنسي فقلده سائر رجال البلاط ثم الارستقراطية فانتشر هذا النطق فى دوائر أخرى بعامل تقليد الطبقة المتميزة اجتماعيا الى أن أصبح هذا التجديد نمطا لغويا سائدا . فدراسة نطق الراء الفرنسية القديمة والنطق الجديد المستقر من الناحية التشريحية أو الفيزيائية ببيان مدى الاختلاف أو الاتفاق بين المخرجين أو الخصائص ، هذه الدراسة لا تكتمل الا بربطهـا بمستوى استخدامها وبالمجتمع الذى استخدمت فيه .

واليوم نلاحظ فى جامعات القاهرة اتجاها جديدا بين الطالبات يذكيه التليفزيون العربى فى نطق القاف والطاء والضاد والصاد ، وهذه الاصوات يطلق عليها عند علماء الاصوات ، الاصوات المطبقة ، وقد بدأت ظاهرة الاطباق تختفى عندهن ، وقد زادت ظاهرة عـدم الاطباق فى نطق القاف والطاء والضاد والصاد زيادة ملحوظة أثارت حفيظة الغيورين على النطق المتوارث للعربية . والواقع أن هـذه الظاهرة يمكن أن تزيد اذا استمرت وسائل الاعلام فى نطقها على ماهى عليه وهنا يكمن اتجاه نحو تجديد لغوى ولا أعنى هنا بالتجديد شيئا طيبا بل أريد وصفه بأنه جديد ، ولو حاولت الدوائر الحاكمة لغويا واعنى بهم مذيعى الاذاعة والتليفزيون الوقوف مـع النطق التقليدى

لظل ماحدث ظاهرة غير عامة ولوقف انتشارها فالتجديد اللغوى مصدره الفرد ولو أتيح لهذا أن ينتشر ويقبل فى المجتمع لاصبح عرفا لغويا يدخل فى مجال البحث اللغوى ولو ظل على المستوى الفردى لما كان مما يدخل فى علم اللغة .

هذا ويتأثر انتشار الصيغة اللغوية بعوامل كثيرة ، ولعل من الملاحظ أن أساتذة الجامعات يدخلون عدداً من المصطلحات العلمية الى اللغة للتعبير عن المعانى الجديدة أو العلوم الوافدة على العربية، فيكتب لجمهرة هذه الاصطلاحات أن تستخدم ـ بادىء ذى بدء ـ بين طلابهم ثم فى دوائر أوسع الى أن تستقر فى العرف اللغوى وقد تصبح من المشاع اللغوى العام بعد ذلك ، فان اختلف واضعوا الاصطلاحات وتعددت معهم اصطلاحاتهم للشىء الواحد حدث ارتباك فى استخدام المصطلحات وربما تعذر التفاهم .

فاللغة تتطور فى أصواتها وصيغها وتراكيبها وهذه جوانب خاصة بالبنية اللغوية وتتأثر فى حياتها وانتشارها بعوامل كثيرة ، فالعامل الدينى أبقى العبرية لغة مقروءة أكثر من عشرين قرنا ، فكان اليهود يتعلمون قدرا من العبرية لانها لغة العهد القديم ، والتقاء العالم العربى حول الفصحى وعدم نجاح الدعوة الى الكتابة بالعامية يرجع الى عوامل منها الالتقاء حول لغة القرآن الكريم ، واللغة القبطية فى مصر والسريانية فى مناطق من الشام والعراق ارتبطتا بالصلاة الكنسية ، وفوق هذا وذاك فقد مهد العامل الدينى لدخول عدد من الالفاظ العربية المتعلقة بالدين والحضارة الى لغات العالم الاسلامى فى آسيا وافريقيا ، ففى هذه اللغات نجد الالفاظ الخاصة بالعبادات وبالسلوك اليومى للمسلم مثل (صلاة زكاة حرام حلال عيد حج) مستعارة من العربية . وارتباط الخط العربى بالدين الاسلامى جعل المتحدثين باللغة الحبشية فى هرر وكلهم من المسلمين ـ يكتبون الحبشية بالخط العربى ويدخلون فيها عددا من الالفاظ العربية وكأنهم قد أرادوا أن

يثبتوا ارتباطهم بالعالم العربى الاسلامى وتميزهم عن الاحباش المسيحيين من حولهم .

والعامل السياسى ذو أثر فى نشأة بعض اللغات أو انتشارها ، وقد ظهرت اللغات الرومانية المختلفة من فرنسية وأسبانية وايطالية ورومانية فى فترة كانت الوحدة السياسية لهذه المناطق قد تمزقت نهائيا وكانت الحركة القومية آخذة فى الظهور . وعندما ننظر الى العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى نجد أن لغة الادارة العليا - على ضيق مجالها - كانت اللغة التركية وأدى هذا الى انتشار نسبى للغة التركية انمحى مع زوال السيطرة التركية ، هذا وتقسيم البعض للدول الافريقية بأن هذه تنطق بالفرنسية وتلك تنطق بالانجليزية يعكس - رغم كل شىء - أثرا للسيطرة السياسية لفرنسا وانجلترا فى القارة الافريقية . واليوم يتعلم تلاميذ ازبكستان (التركستان سابقا) اللغة الروسية لانهم يعيشون فى جمهورية تنتمى الى الاتحاد السوفيتى فالعامل السياسى يؤثر فى انتشار اللغة ولكن هذا الاثر يختلف مداه من اقليم لآخر طبقا لطبيعة العلاقات فى المجتمع ».

أما العامل الاجتماعى فهو من أهم العوامل وأبعدها أثرا فى حياة اللغة ، فانتقال مجموعة بشرية معينة من مكان الى آخر واختلاط المجموعة الوافدة مع السكان القدامى كفيل بخلق علاقات لغوية جديدة ومن المعروف أن هجرة القبائل العربية عقب الفتح الاسلامى للشام والعراق ومصر والمغرب كانت أهم حدث فى تاريخ العربية فقد انتشرت اللغة العربية بهذا خارج نطاق جزيرة العرب وأصبحت لغة الحديث والادب والثقافة فى الدولة الاسلامية الكبرى . وفوق هذا وذاك فالطبقة العليا فى المجتمع الواحد ذى الطبقات المتعددة تؤثر تأثيرا حاسما على المستويات اللغوية المستخدمة لدى الطبقات الاخرى ، ومحاكاة الطبقة العليا أمر معروف وملاحظ فى كل مظاهر الحياة الاجتماعية ويكفى أن تظهر بعض العادات اللغوية الجديدة أو بعض

التجديدات عند أفراد الطبقة العليا ثم يقلد هذا التجديد فى طبقات عريضة فى المجتمع فيصبح بذلك ظاهرة اجتماعية عامة .

والعامل الحضارى عامل فعال فى حياة اللغات وانتشارها ، فتعلم أبناء العربية اليوم للغة الانجليزية يرجع أولا وقبل كل شىء الى القيمة العلمية للمؤلفات المكتوبة باللغة الانجليزية فى مختلف فروع المعرفة ، والتقدم العلمى فى روسيا فى القرن العشرين دعم مكانة اللغة الروسية وجعل منها لغة يقبل غير الروس على تعلمها ، واليوم لانرى الاوربيين يتعلمون العربية الا للتخصص فيها أو التعامل مع العرب ، وستصبح العربية محط اهتمام العالم فى التعليم العام والجامعى عندما يحقق أبناء العروبة بمنجزاتهم الحضارية والعلمية مايجعل العالم الخارجى يقبل على الاستفادة مما كتبه أبناء العربية بالعربية. وكل تقدم يحرزه أبناء العربية اليوم تدعيم لمركز اللغة العربية بين اللغات العالمية ، وقديما دار حديث المفكرين عن أفضل اللغات وقال البعض بتفضيل العربية لأن بها العين والضاد .. وزعم الاوروبيون كون اللاتينية أفضل لغات الارض ، والواقع أن الفيصل فى قيمة اللغة هو تراثها وماتحمله من حضارة وعلم يفيد الحاضر ويبنى المستقبل فأبناء اللغة هم الذين يرفعون قيمتها أو يقللون من شأنها لا بتفانيهم فى تقريظها بل بعملهم وبتأليفهم بها .

اللغة اذن نظام من الرموز الصوتية يؤدى وظيفته فى المجتمع ويتأثر بالعلاقات المختلفة فيه ، ودراسة التطور اللغوى هى محصلة دراسة تطور البنية وتطور العلاقات ، ولكن كيف نبدأ الفصل الاقدم فى حياة العربية ؟ وهل نستطيع أن نفرد لآدم ولغته فصلا فى كتاب عن تاريخ اللغة العربية ؟ قد يبدو هذا التساؤل طريفا لدى القارىء الحديث ولكن ألم تتصور العصور الوسطى عندنا كون العربية لغة آدم ، مفسرين الآية الكريمة (وعلم آدم الاسماء كلها) تفسيرات مختلفة ضيقة . فآدم في الآية ليس الا الانسان في مرحلة ظهوره على الارض ،

وقد اتيح للانسان أن يسمى الاشياء تسمية لغوية ، فتميز بهذا عن سائر الكائنات ، فالاسماء هنا ليست قسيم الافعال أو الحروف بل تعبير عن القدرة اللغوية بعامة ، وهذا الاستطراد ليس من علم اللغة، فلغة الانسان الاول ونشأة اللغة ليسا من علم اللغة لانهما مما لايدرك بمناهج البحث العلمى الدقيق والبحث اللغوى يبدأ عندما نجد نقشا أو نصا أو لهجة منطوقة ، ولايستطيع علم اللغة أن يمضى وراء أقدم النقوش الا بالمقارنة مع النقوش الاقدم فى اللغات المنتمية الى نفس الاسرة اللغوية . والعربية احدى اللغات السامية ولكنها لم تصلنا الا قبيل الاسلام بقرون غير أن الدراسة المقارنة للغات السامية أثبتت أن العربية أقدم من قدم النقوش العربية بأكثر من ألفى عام ، فالمراحل السابقة على النقوش المدونة بالعربية نستشفها بالمقارنات مع النقوش المغرقة فى القدم والتى دونت باللغات السامية الاخرى ، فعلم اللغة المقارن يتناول اللغات المندرجة فى أسرة لغوية واحدة بالمقارنة المنهجية بحثا عن الاصول المشتركة والعلاقات التاريخية بين هذه اللغات .

الفصل الثانى

علم اللغة المقارن واللغات السامية

يقسم اللغويون المعاصرون اللغات المختلفة الى مجموعات أو أسرات ، فهناك أسرة اللغات الهندية الاوربية التى تضم عددا كبيرا من اللغات الهندية والايرانية والاوربية ،وأسرة اللغات السامية التى تضم العربية والأكادية والكنعانية والحبشية والآرامية . وقد تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة الى أسرات أو فصائل بمقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بين عدد منها ، الأمر الذى جعلهم يفترضون وجود أصل مشترك خرجت عنه هذه اللغات على مر التاريخ، وجدوا ظواهر مشتركة فى اللغات المنتشرة مابين ايران والهند واعتبروا هذه اللغات ضمن اطار أسرة لغوية واحدة من أصل واحد مشترك . ووجدوا اللغات العربية والعبرية والفينيقية والأكادية والحبشية تحمل بعض الخصائص اللغوية المشتركة فقالوا انها لغات انحدرت من لغة واحدة اطلقوا عليها اللغة السامية الأم أو السامية الأولى ، وكل هذه المقارنات هى مجال علم اللغة المقارن .

المقارنات اللغوية وليد القرن التاسع عشر ، ولنشأة علم اللغة المقارن ظروف فكرية جعلته ينشأ متسما بطابعه المتميز . فالواقع أن مجرد المعرفة باللغات لا يعنى قيام بحث مقارن ، ففى العصور الوسطى الاسلامية كان كثير من النحويين واللغويين العرب يعرفون لغات أجنبية ، بعضهم كان يعرف الفارسية وعرف عدد منهم التركية وكتبت طائفة بالعربية والعبرية أو بالعربية والسريانية . فسيبوية

والسيرافي كانا يعرفان الفارسية ، وابن العبرى كتب بالعربية والسريانية ، وألف في النحو السرياني على غرار المفصل للزمخشرى، لقد درس ابن العبرى النحو العربي وعرفه حق المعرفة منهجا ومادة، واقام على منواله كتابه المشهور في النحو السرياني ، والسريانية والعربية لغتان ساميتان تنتميان الى أسرة واحدة ، وهناك عدد من النحاة اليهود عاشوا في الأندلس ودرسوا في اطار الثقافة الاسلامية النحو العربي والفوا كتبا في النحو العبرى على غرار ماوجدوه عند العرب من دراسات ، والعربية والعبرية لغتان ساميتان ، وفوق هذا وذاك فقد كان للنحوى العربي ابن حيان قصب السبق في محاولة تاليف نحو للغة التركية وآخر للغة الحبشية ، والحبشية من اللغات السامية . لم تكن اللغات السامية غريبة عن المشتغلين بعلم اللغة في الحضارة العربية الاسلامية ، ولكن هذه المعرفة لم تؤد الى قيام بحث مقارن فقد كان كل فريق يرى في لغته المثل اللغوى الأعلى والنموذج القديم الأصيل ، وارتبطت اللغة عند هؤلاء وأولئك بالدين، ومن ثم فكل انحراف عن هذه اللغة وكل اختلاف عنها يعتبر انحلالا وامتهانا لها ، وقدس اليهود العبرية واعتبروها لغة آدم واللغة المثلى، وقدس المسيحيون السريانية وبالغ اللغويون العرب في قدم العربية فجعلوها لغة آدم ولغة الجن ولغة الملائكة ولغة عالم الغيب ، نظر كل فريق الى لغة دينه باعتبارها أصلا ولم ينظر الى اللغة أو اللغات نظرة تاريخية .

ان التراث العربي يعرف رغم هذا اشارتين كانتا حقيقتين ببث بذور ثورة في علم اللغة ، الاشـــارة الاولى نجدها عند المفكر الاندلسى النابه ابن حـزم ، يقول : « الذى وقفنا عليه وعلمنـاه يقينا ان السريانية والعبرانية والعربية ـ التى هى لغة مضر وربيعة لا لغـة حمير ـ هى لغة واحدة تبدلت بتبدل مســاكن أهلها » . وهذا النص هام ،فابن حزم يفرق هنا بين العربية الجنوبية التى يطلق عليها في الكتب العربية القديمة لغة حمير وبين العربية الشـمالية التى

يسميها لغة مضر وربيعة ، وهو يؤكد أن العربية والعبرية والسريانية من أصل واحد وأن الهجرات أحدثت التغيير اللغوى وهــذا ينطبق تمام الانطباق على ما يقول به الباحثون المعاصرون في اللغات السامية. ولكن هذه الاشارة لم تدفع الى البحث التاريخى المقارن فى هــذه اللغات . وينبغى أن نشير هنا أيضا الى أن آراء ابن خلدون في اللغة لم تحدث كذلك أثرها المنشود في البحث اللغوى . لقد افرد ابن خلدون في مقدمته فصلا في أن لغة العرب في عصره - أى في القرن الرابع عشر الميلادى لغة مستقلة تغاير لغة مضر وحمير ، وابن خلدون لا ينظر الى اختلاف اللغة فى عصره عن العربية الفصحى فى عصــورها المبكرة باعتبارها انحلالا وفسادا أو تشويها للغة بل يؤكد أن للغــة عصره ضوابط أخرى يمكن أن تدرس . يقول : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخرى غير موجودة فيه فتكون لها قــوانين تخصها » . وهذا يتفق تماما مع ما يقوله علماء اللغات المحدثون .

ولكن كل هذه الصيحات الثورية لم تجد عند اللغويين والنحاة أى صدى علمى وستمروا يرددون أن العربية فســدت وأن عصور النقاء قد ولت وياليت شباب اللغة يعود يوما . ومضت الامور فى العصور الوسطى في الشرق والغرب دون حس تاريخى تطورى ، فقد كانت فكرة التطور غريبة عنهم بصفة عامة ، وفي العلوم الانسانية بصفة خاصة .

وحدثت الانطلاقة الكبرى في البحث في مختلف اللغــات بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية ، فوجد الأوربيون في التراث الهندى أول دراسة وصفية للغة من اللغات ، ووجدوا البحث الهندى فى اللغة قد قام على الملاحظة وتسجيل الواقع لا على المنطق والآراء الفلسفية وبدأت الدراســة اللغوية الحديثة بمقارنة اللغــة السنسكريتية باللغة اليونانية واللغة اللاتينية وأثار تشــابه هــذه اللغات اهتمام الدارسين ، وتطورت الدراسات مع المقارنات ، ومن

أهم رواد علم اللغة المقارن الباحثون الالمان بوب ، وجرم ، وبروجمان وثلاثتهم من القرن التاسع عشر ، فالمنهج المقارن عرف أهم رجاله وابحاثه ونتائجه في القرن التاسع عشر . وينبغى أن نقف هنا لننظر الى علم اللغة المقارن فى طور نشأته وازدهاره .

لقد اتسمت ابحاث القرن التاسع عشر بأمرين : اولهما الوعى التاريخى والثانى البحث عن قوانين . والواقع أن كل العلوم كانت في ذلك القرن ذات طابع تاريخى ، فبعد أن حاول دارون أن يرتب الكائنات ترتيبا تاريخيا وأعجبت العلوم الانسـانية بدقة منهجه اعجابا شـديدا ، حـاول المشتغلون بها التوسـل بالمنهج التـاريخى ، فالاقتصاديون يكتبون في تاريخ الاقتصاد والقانونيون يكتبون في تاريخ القانون ودارسو الأدب يؤلفون في تاريخ الأدب ، أما أصحاب البحث في اللغة فقد الفوا في التاريخ اللغوى دارسين الارتباط والعلاقات التاريخية بين اللغات محاولين تأريخ الظواهر اللغوية وترتيبها في نسق زمنى ، وفي اطار البحث المقارن ظهر أن اللهجات هى أنظمة صوتية مثل اللغات الأدبية تماما وأن بعض اللهجات أقدم من كثير من اللغات الأدبية ، ومن هنا أخذت اللهجات مكانتها كموضـوع للدراسة وقورنت اللغات واللهجات فى اطار المجموعة اللغوية الواحدة، وعادت هذه المقارنات على البحث اللغوى كله بنتائج جديدة أسهمت فى ايضاح حقائق عن طبيعة اللغة وحياتها . أما البحث عن قوانين مطردة لاتعرف الشذوذ فكان أثرا من آثار العلوم الطبيعية التى حققت باكتشافها للقوانين المفسرة التى تخضـع لها الظـواهر الطبيعية الكثير من النتائج ، وحاول اللغويون البحث عن قوانين مماثلة ليصبح علم اللغة من العلوم الدقيقة ، وفي تلك الظروف ظهرت فكرة القوانين الصوتية .

لقد حدث اذن تطور منهجى شامل فى علم اللغة بصفة عامة ، وعاد هذا بالخير على البحث في تاريخ كل اللغات . فدرست العربية والعبرية والحبشية والآرامية فى ظل المنهج المقارن دراسة علميـة

دقيقة ، وعرف الباحثون لغات جديدة لم تكن العصور الوسطى تعرف منها شيئا ،لقد اميط اللثام عن لغة اكتشفت في العراق مكتوبة بخط غريب يشبه المسامير وهذه اللغة الهامة هى الاكادية التى نقلت الينا حضارة العراق القديم • وبدأ البحث فى العربية الجنوبية لغة اليمن في ماضيه المجيد وفى الفينيقية لغة ساحل الشام ، ولم تقتصر المادة الجديدة على هذه اللغات الحديثة الاكتشاف والدراسة ، بل زادت المادة فى اللغات السامية الاخرى أمام الباحثين ، لقد جمعت نقوش كثيرة بكل هذه اللغات ، وحققت زخرة من النصوص تحقيقا علميا ، وسجلت طائفة من اللهجات الحية فى مختلف أنحاء الشرق ، لقد زادت المادة اللغوية التى يستطيع الباحث مقارنتها زيادة ملحوظة وبدأت صورة اللغات السامية تتضح جغرافيا وتاريخيا ، وفي نفس الوقت حدث تقدم منهجى ملحوظ في علم اللغات الهندية الأوربية وبدأ الباحثون فى اللغات السامية يستفيدون من النتائج التى حققها علم اللغات الهندية الأوربية في دراسة اللغة . وبرز فى هذه الاثناء عدد من اللغويين العظام منهم تيودور نولدكه وكارل بروكلمان ، وسار على خطاهم اساتذة أجلاء أرسوا الدعائم الاولى لعلم اللغة فى جامعة القاهرة نذكر منهم انو ليتمان وشاده وبرجشتراسر ومجموعة من الباحثين العرب •

اذا نظرنا اليوم بعد قرن ونصف قرن من البحث الحديث فى علم اللغة وجدنا أن العربية تأخذ بين اللغات السامية مكانا كريما ، واللغة العربية آخر لغة سامية دخلت التاريخ ولكنها دخلته مع الفتح الاسلامى والهجرات وكانت أداة التعبير في الحضارة الاسلامية فكانت أهم اللغات السامية وأكثرها انتشارا واتصالا ، وبالاضافة الى هذا فيعتبرها اللغويون اقرب اللغات السامية الى اللغة السامية الأم ، وكأنها قد حافظت في عزلتها الصحراوية النسبية على أقدم خصائص الاسرة السامية ، ويرى الباحثون المعاصرون أن الجماعات السامية

الاولى عاشت فى منطقة بادية الشام والعراق وشمال الصحراء العربية الكبرى ثم خرجت من هذا المهد الأول الى الاقاليم المتاخمة في هجرات توالت في مراحل تاريخية متعاقبة . ونحن نؤرخ هذه الهجرات بتاريخ النقوش التى عثرنا عليها فى المناطق المختلفة .

أقدم نقوش سامية وصلتنا هى النقوش الاكادية ، وقد وجدت هذه النقوش فى أرض الرافدين مكتوبة بخط غريب الشكل هو الخط المسمارى ، ويطلق على هذا الخط هذا الاسم لأنه يشبه المسامير ، وتؤرخ النقوش المسمارية الاكادية من حوالى سنة ٢٥٠٠ ق م فصاعدا ، وهى بهذا أقدم النقوش السامية ، هاجر الساميون من مهدهم واتجهوا الى أرض الرافدين فى تاريخ سابق لهذه النقوش ، والتقى المهاجرون البسطاء بالسومريين وهم شعب سبق الساميين الوافدين فى انجاز حضارة راقية في ارض الرافدين ، وهناك تعلم الوافدون عن السومريين الكتابة وتأثروا بلغتهم من أكثر من جانب ، ورغم هـذا فهناك الفاظ كثيرة نجدها فى العربية والاكادية ولكن لنقول انها استعيرت أو دخلت من هذه اللغة الى تلك علينا أن ننظر الى اللغات السامية الأخرى .

عرفت منطقة الشام اللغة السامية الثانية من ناحية عمر نقوشها ، فالأجريتيـة هى هذه اللغة التى لا يعرفهـا الا عدد من المتخصصين ، والأجريتية لغة اكتشفت سنة ١٩٢٦ على ساحل الشام بالقرب من منطقة رأس شمراء ، فهى بهذا آخر كشف عرفه البحث فى اللغات السامية ولكنها أقدم لغة وصلتنا من منطقة الشام ، وقد نسبت هذه اللغة الى أطلال المدينة التى وجدت فيها النقوش وذكر اسمها فيها وهى مدينة اجريت وتؤرخ هذه النقوش بسنة ١٤٠٠ ق م . وتكون الاجريتية مع اللغات العبرية والفينيقية والبونية المجموعة الكنعانية من اللغات السامية ، والعبرية أحدث عهـدا من الاجريتية اذ أن قبيلة بنى اسرائيل تعلمت العبرية من الكنعانيين الاصليين عند دخول القبيلة ارض كنعان في حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ،

ويمثل العهد القديم وهو كتاب اليهود المقدس المكون من التوراة والانبياء والمكتوبات ألف عام من تاريخ اللغة العبرية فأقدم نصوصه من تاريخ الهجرة الى أرض كنعان وآخرها بعد ذلك بألف عام . أما الفينيقية فلم تصلنا في كتاب كالعبرية بل عرفناها من النقوش المتناثرة في ساحل الشام وجزر البحر المتوسط وجنوب اوربا ، فقد كان الفينيقيون شعبا تجاريا نشطا وتركوا آثارهم أينما حلوا ، وكون الفينيقيون لأنفسهم كيانا اجتماعيا وسياسيا على ساحل البحر المتوسط فى تونس ، وتسمى الفينيقية فى امتدادها الافريقى اللغة البونية . والنقوش الفينيقية والبونية تمتد اكثر من ألف عام تبدأ فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد وتمتد حتى القرن الاول الميلادى .

عرفنا فى العراق القديم اللغة الأكادية وفى الشام القديمة اللغات الكنعانية المختلفة من اجريتية وعبرية وفينيقية ، وفى المرحلة التالية خرجت جماعات سامية اخرى الى الشام والعراق وهؤلاء يطلق عليهم عند الباحثين اسم الآراميين . والواقع أنه لا توجد لغة واحدة أو موحدة نطلق عليها اسم اللغة الآرامية بل وصلتنا عدة لهجات متقاربة اتفق على تسميتها بالآرامية أو باللهجات الآرامية . وأقدم النقوش الآرامية من القرن الثامن قبل الميلاد ، وانتشرت الآرامية شيئًا فشيئًا حتى اصبحت لغة الحياة اليومية في منطقة الشام والعراق قبل التعريب أى قبل الفتح والهجرات الاسلامية . وأهم اللهجات الآرامية على الاطلاق السريانية والنبطية ، فالسريانية كانت همزة الوصل فى نقل التراث الاغريقى الى اللغة العربية ، والنبطية كتب بها النبط العرب قبل أن تصقل العربية كلغة ثقافة فعرفوا الكتابة وطوروها وعلموها لسائر العرب فكانت الكتابة العربية . ودراسة اللهجات الآرامية هامة لفهم تاريخ العربية لغة وحضارة فقد سبقتها فى البيئة والزمان .

كل اللغات التى ذكرناها كانت من الشرق (لعراق) أو الغرب (الشام) أما اللغات السامية الجنوبية فتضم العربية الجنوبية

والعربية (الشمالية) والحبشة ، وهذا الفرع الجنوبى له مميزاته التى تضمه مع اللغات الاكادية والكنعانية والآرامية فى اسرة واحدة وله مايجعله فرعا متميزا داخل اطار هذه الاسرة . وصلتنا العربية الجنوبية القديمة فى النقوش التى جمعت فى اليمن ونجران والمحطات التجارية التى أقامها عرب الجنوب فى الشمال ، وتمتد هذه النقوش من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الخامس الميلادى ، وأهم لهجات هذه النقوش : السبئية والقتبانية والحضرمية . أما اللغات السامية فى الحبشة فأقدمها لغة الجعز وهذه اللغة لم تدون الا فى وقت متأخر فأقدم نصوصها يؤرخ بالقرن الرابع الميلادى ، وأهم اللغات السامية الحديثة فى الحبشة : الأمهرية والتجرى والتجرينا.

وكل هذه اللغات السامية تحمل خصائص مشتركة هى الميراث السامى القديم ، ووجود هذه الخصائص ممثلة في العربية مع اقدم اللغات السامية أو فى العربية وحدها مع الخروج عنها فى اللغات الأخرى معناه أن العربية تعرف بعض الظواهر التى تفوق الهجرة الاكادية قدما ، وقد حدثت هذه ـ كما أشرنا قبل منتصف الالف الثالث الميلادى ، فما هى الالفاظ المشتركة فى اللغات السامية هذه التى تستخدم في العربية وعمرها الآن يجاوز الاربعين قرنا ، عرفتها الاكادية في نقوشها سنة ٢٥٠٠ ق م وتعرفها العربية اليوم ١٩٦٨ وما مصير هذه الالفاظ العريقة الموغلة فى القدم ؟ وماهى الظواهر الصوتية والصرفية التى احتفظت بها العربية فى عهدها البدوى من لغة الجماعات السامية الأولى ؟

الفصل الثالث

العربية فى ضوء اللغات السامية

يعرف الباحثون اليوم عددا من الالفاظ المشتركة فى كل اللغات السامية نجدها فى العربية والاكادية واللغات الكنعانية والآرامية بجانب العربية الجنوبية والحبشية وكأن هذه الكلمات هى المعجم الاساسى البسيط الذى كان يستخدمه الساميون القدماء والذى ورثته كل لغة من اللغات السامية عن اللغة الآم . بضم هذا المعجم الاساسى الالفاظ الدالة على أعضاء الاسرة ، فكلمات الاب والام والاخ والاخت والعم كلمات مشتركة فى كل هذه اللغات ، والكلمات الخاصة بأعضاء جسم الانسان مثل العين والانف والرجل والشعر واليد والاذن والرأس ألفاظ نجدها مشاعا فى كل اللغات السامية وهذه الالفاظ دون شك هى ميراث قديم عندما حاولت هذه الجماعات من البشر أن تسمى علاقات الاسرة وأن ينظر كل واحد الى أعضاء جسده . وهناك عدد آخر من الكلمات المشتركة الموروثة في اللغة السامية الام ، تعبر عن أسماء بعض الحيوانات منها ليث وكلب وعجل ، هذا وقد عرفت بيئة الساميين الاوائل نوعا من الزراعة ، الامر الذى جعل بعض الكلمات الزراعية من المعجم الاساسى المشترك فى كل اللغات السامية ، وهذه مثل : كمون . سنبلة . قمح . ثوم ، وبجانب هذا وذاك فالاعداد شىء مشترك فى هذه اللغات ونعنى بها الاعداد من ١ الى ١٠٠

فالساميون القدماء لم يعرفوا المليون كلمة . أما فى محيط الافعال فهناك أفعال كثيرة مشتركة فى اللغات السامية مثل : هلك . قتل . كتب ، هذه الالفاظ اذن من أقدم الالفاظ فى العربية واذا نظرنا الى النقوش الاكادية المؤرخة فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد وجدنا فيها هذه الكلمات ، هاجر بها الاكاديون قبل هذا التاريخ من مهد الساميين الى أرض الرافدين ومعنى هذا أن عمر هذه الالفاظ أكثر من خمسة وأربعين قرنا .

لننظر اذن الى هذه الكلمات مقارنين اياها فى العربية والاكادية، لقد وصلتنا اللغة الاكادية مكتوبة بالخط المسمارى المقطعى ، وترجع تسمية هذا الخط بالمسمارى الى شكله العام الذى يشبه المسامير. والكتابة الاكادية كتابة مقطعية ، أى أن الكلمات تقسم وفق مقاطعها ولكل مقطع رمز على حدة ، ولو تصورنا مثلا أن الاكاديين أرادوا كتابة كلمة قسموها الى مقاطعها ، فكلمة كلب تظهر عندهم فى أشكال ثلاثة للرفع والنصب والجر Kal-bum, Kal-bam, Kal-bim

ومعنى هذا أن الاكاديين كتبوا كتابة كاملة تدون الحركات كما تدون السواكن أى تدون الفتحة والكسرة والضمة كما تدون الطاء واللام والنون وكل هذا فى نفس الخط ونفس السطر لافوقه ولا تحته، فالرمز المقطعى يدل على مقطع كامل Kal, bam, bum, bim دون امتهان أو استخفاف بالحركات ، ولهذا أهمية كبرى فى معرفة طبيعة اللغة ، فمعظم الاسماء الاكادية وصلتنا فى النقوش المسمارية فى ثلاث صور . احداها بحركة هى الضم ، والثانية بحركة هى الفتح ، والثالثة بحركة هى الكسر ومعنى هذا بتتبع سياق هذه الحالات الثلاث وجود نهايات اعرابية فى الاكادية على النحو الثلاثى الذى نعرفه فى العربية ، ومعنى هذا بالنسبة لتاريخ اللغة العربية أن ظاهرة الاعراب تفوق الهجرة الاكادية قدما ، وأن الاكاديين خرجوا بهذه الظاهرة من مهد الساميين ، فالاعراب فى العربية والاكادية أقدم من سنة ٢٥٠٠ ق‌م وعمره أكثر من خمسة وأربعين قرنا .

ولنقف قليلا عند عدد من الكلمات التى وصلتنا فكلمة «عين» فى العربية دونت فى الاكادية بما يقابل صوتيا enu ((اين)) أى دون عين ، وكلمة حقل فى العربية دونت فى الاكادية بما يقابل (eqlu ايقل) ، واذا نظرنا الى الكلمتين الاكاديتين لاحظنا عدم وجود العين والحاء ، والواقع أن الحاء والعين ضمن أصوات الحلق التى فقدتها اللغة الاكادية ، نقول ان العربية تمثل هنا المرحلة الاقدم ، فاللغات السامية الاخرى الكنعانية والآرامية احتفظت مع العربية بالصيغة الاقدم . والذى اتفق عليه الباحثون بالدليل العلمى أن الاكادية تمثل الصيغة الاحدث رغم قدم نقوشها وهذا أمر طريف للغاية ، فالعربية التى لم تصلنا الا بعد الاكادية بآلاف السنين قد احتفظت فى عزلتها الصحراوية بعدد من الالفاظ القديمة كما احتفظت بالدلالات الاعرابية للاسم واحتفظت بعدد من الاصوات التى هجرتها بعض اللغات السامية الاخرى .

لقد أسهمت الدراسة المقارنة للغات السامية فى ايضاح جوانب كثيرة من حياة اللغة العربية فى عصرها السحيق ، والامثلة كثيرة على نتائج هذا البحث المقارن بالنسبة للعربية . لقد حار اللغويون القدماء فى تحديد المادة الاشتقاقية لكلمة (مدينة) قال بعضهم انها من مادة ((مدن)) ، وقال البعض الآخر أن الميم ليست أصلا وأن الاصل (دىن) أو (دان) ، والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض الى مرحلة الاثبات العلمى ، فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون ، والديان فى العربية والعبرية والآرامية هو القاضي و (بيت دين) في العبرية هى المحكمة ونعرف فى العربية الدائن والمدين كمصطلحين قانونيين ، فالمادة كلها تعنى أساسا القانون ومايتعلق به من ضوابط والتزامات أما الصيغة ذات الميم التى نناقشها فظهرت فى الآرامية ونعرفها هنا بمعنى وحدة قضائية ، فالمدينة هى المركز الذى التفت حوله القوى المجاورة وتكون معها جميعا وحدة قضائية ، وعندما انتقلت الكلمة الى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما

يبدو أول استخدام للكلمة فى العربية ومضت الكلمة فى الاستخدام اللغوى العربى .

وربما لايخطر ببال العارفين بكتب النحو أن هناك وزنا يطلق عليه فى علم اللغة المقارن وزن شفعل أو سفعل وأن هـذا الوزن هو وزن التعدية القياسى فى بعض اللغات السامية ولننظر الى كلمة شعلق وشقلب وسهمد .. الخ . كل هذه الكلمات نعرفها فى اللهجات العربية وقد يخطر لاول وهلة أنها كلمات مستحدثة والواقع أنها ليست كذلك بل هى رواسب لوزن استخدم قديما فى اللهجات العربية الجنوبية القديمة التى وصلتنا من القرن الخامس قبل الميلاد فصاعدا ، ان العربية الشمالية لاتعرف هذا الوزن وتستخدم للتعدية عدة أوزان منها فعل ونحن لانستخدم فى العربية الفصحى الفعل شعلق بل نستخدم علق ولا نستخدم شقلب بل نقول قلب أو قلب ونقول مهد بدلا من سهمد ، والسين والشين هنا وهناك ليستا أصليتين بل هما من أحرف الزيادة وهذا الوزن من أقدم الاوزان التى عرفتها اللغات السامية ، ويفيد التعدية أى تكوين فعل متعد .

ولننظر نظرة أخيرة الى بعض الالفاظ السامية المشتركة لنتابع تطورها ، فكلمة حقل فى العربية تقابلها فى الآرامية (حقلا) وفى العبرية (حيلق) وهنا نلاحظ أولا أن الصيغة الآرامية تعرف الالف الاخيرة وهذه عندهم بمثابة أداة التعريف فكلمة حقلا الآرامية تعنى بالعربية الحقل . أما العبرية فتعرف قلبا مكانيا فقد تبادلت القاف مع اللام مكانها والقلب المكانى ظاهرة نعرفها أيضا فى اللغة الواحدة ، ونحن نعرف اليوم كلمة أرانب ونعرف نطقها (أنارب) أيضا وكذلك (ملاعق معالق) . وكل هذا يطلق عليه عند اللغويين اسم القلب المكانى ،ولكن هل معنى الكلمة العربية حقل والآرامية حقلا والعبرية حيلق هو نفس المعنى . الواقع أن المعنى فى العربية : قطعة من الارض الزراعية ـ ميدان ـ مجال . وفى العبرية قطعة أو جزء أو قسم والآرامية تحمل معانى العربية والعبرية ، ففى العبرية تطلق الكلمة على أى قسم

وليكن مثلا أحد أقسام كتاب والمعنى فى العربية ليس هو المعنى فى العبرية ولكنه قريب منه وهنا نلاحظ مايطلق عليه اللغويون تغير أو تطور الدلالة ، ولكن أهذا خاص بهذه الكلمة وحدها أم نـراه فى غيرها ؟ الواقع أن هذا ملاحظ فى آلاف الكلمات فى لغـــات المجموعة الواحدة وفى داخل اللغة الواحدة أيضا . فكلمة هلك العربيـــة تقابل اشتقاقيا كلمة هالخ العبرية والـــكاف والخـاء فى العربيـــة صورتان لصوت واحد ، وعلى كل حال فالكلمتان كلمة واحدة مـن الناحية الاشتقاقية ، ولكن الكلمة العبرية تعنى الذهاب على اطلاقه ـ الذهاب الى المدرسة أو الى المحكمة ، والكلمة العربيـــة تعنى الذهاب الى العالم الآخر . وفرق بين هذه وتلك ، ولنذكر كلمـــة أخرى شائعة هى كلمة أهل والمقابل الاشتقاقى فى هذه الكلمـــة فى العبرية لايعنى الاسرة بل يعنى الخيمة ، فهل هناك ارتباط بين المعنيين ان حياة البادية التى عاشتها الجماعات السامية الاولى كانت تجعل الخيمة عماد الاسرة ؟ وفى هذا التقى المعنيان حول الكلمة الـــواحدة ثم انفصل كل منهما فى لغة من اللغات الناجمة عن الاصل السامى . ان الحديث عن العربية واللغات السامية الاخرى طويل ولكنا نكتفى بأن نقرر هنا مع الباحثين أن العربية قد احتفظت بعدد من الظواهر اللغوية التى تفوق الهجرة الأكادية سنة ٢٥٠٠ ق‌م قدما وأن مقارنة العربية باللغات السامية الاخرى توضح جوانب الاشتقاق فى كثير من الأمور التى حار اللغويون فى الفصل فيها وأن هناك تطورا عرفتـه اللغات السامية فى الاصوات والصيغ والدلالة . وفوق هذا وذاك فالعربية هى أقرب اللغات السامية الى اللغة الأم ، ومن ثم فهى أساس المقارنات وقد افادتنا هذه المقارنات فى كشف التاريخ السحيق لكل لغة من اللغات السامية . وها نحن قد أرخنا لبعض ظـــواهر العربية بما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد .

الفصل الرابع

النقوش العربية المبكرة

وجود اللغة كظاهرة صوتية منطوقة شيء وتدوين اللغة فى صورة مكتوبة شيء آخر والدراسة المقارنة أفادتنا في تأريخ عمر بعض الظواهر ولكنا لانستطيع التأريخ الدقيق للغة من اللغات الا اذا نظرنا اليها فى أقدم نصوصها أو نقوشها المدونة ، ورغم أننا نسلم أن استخراج حقائق لغوية من النقوش المدونة عمل عكسي ، فالاصل هو الصورة المنطوقة لا المنقوشة الا أننا مضطرون لهذا فى الدراسة التاريخية للغة فليس أمامنا الا هذه النقوش وليس فى وسعنا أن نعيد الحياة لبشر سبقونا فى الوجود بآلاف السنين . النقوش اذن هى مصدرنا فى التعرف على أقدم مظاهر العربية كما وردت الينا .

كشف لنا جهود الباحثين في المائة عام الماضية عددا كبيرا من النقوش العربية الشمالية المبكرة ، وصلتنا فى الفترة الزمنية بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الرابع الميلادى ، وليست هذه النقوش هى أقدم شيء وصلنا بالعربية ، فقد ذكرت النقوش الاكادية التى دونت فى العراق القديم عددا من أسماء الأعلام العربية ، وقد قام بعض الباحثين بدراسة هذه الأسماء وأثبتوا أنها أعلام عربية ، ويبدو أن هذه النقوش قد دونت بين ٥٥٣ ـ ٦٢٦ ق . م ولكن هذه الاسماء لقلتها لاتقدم لنا معلومات مجدية عن طبيعة اللغة العربية فى تلك الفترة .

اما النقوش الثمودية والصفوية واللحيانية فتعتبر من أهم مصادرنا للتعرف على المرحلة المبكرة فى تاريخ العربية ، وقد وجدت هذه النقوش فى أماكن كثيرة من المنطقة شبه الرعوية بين صحراء الجزيرة العربية والمناطق الزراعية فى الشام والعراق وكذلك فى شبه جزيرة سيناء ، وتختلف هذه النقوش من ناحية جودة الكتابة ووضوحها ، فبعضها كتب بعناية ودقة واهتمام والبعض الآخر كتبه افراد بسطاء دون اهتمام بالرونق والجمال ويطلق على النوع الأخير اسم الجرافيتى أو - المخربشات . وكل هذه النقوش مدونة بخط يشبه الى حد ما الخط المسند الذى عرفته اليمن فى عصورها القديمة ويختلف شكل الخط المسند عن الخط العربى الشمالى اختلافا اساسيا ، ولكن هذا وذاك يشتركان فى خاصية واحدة فقد عنيا بالأصوات الساكنة دون حركات قصيرة فنحن نكتب الكاف والتاء والباء للتعبير عن كتب وكتب وكتب الخ . وشبيه بهذا ما عرفناه فى هذه النقوش فهى كتابة لا تعير الحركات القصيرة حظها من الاهتمام ، ومن ثم كان استخراج الظواهر اللغوية من هذا الهيكل الكتابى شيئا صعبا فى بعض الظواهر مستحيلا فى بعض الظواهر الأخرى .

تعرف النقوش الثمودية عددا كبيرا من الظواهر التى نعرفها فى العربية ، ففيها وفرة من الأفعال التى نعرفها فى العربية حق المعرفة مثل : علم حل بات رعى رهب بان وكتم ورد عشق ، وتعرف النقوش الفعل بوزن فاعل مثل : ساعد وبوزن أفعل مثل أبتر ، وتعرف النقوش الثمودية كذلك عددا من حروف الجر مثل الى والباء وفى ومن واللام ، وعددا آخر من المفردات الشائعة فى العربية مثل جمل ناقة فرس وعل فلان فلانة آل أمير أسد ذكر حزم ظلم نصر نقم سلامة سعادة ، وهناك عدد من أسماء الأعلام العربية وردت فى النقوش الثمودية مثل احمد وبدر ووائل وزيد وحليم وطاهرة وظريف وكلب ولبيد ومطر ومكين وحضر ومروان ونوفل وضيف وأمين وشهر ، فكل هذه الظواهر والكلمات التى نعرفها اليوم وردت فى النقوش الثمودية

التى يؤرخها معظم الباحثين من القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد الى القرن الثالث الميلادى ، وهكذا نجد أن عمر كثير من الظـــواهر فى العربية يرجع على اقرب تقدير الى هذه الفترة .

اما النقوش الصفوية ففيها ظواهر كثيرة تجعل الباحثين يقررون انها تمثل لهجة عربية شمالية فنجد فيها الافعال : ندم وتشوق ولعن ونهل وسمع وعور وقتل ورعى ، ومن الأسماء الشائعة فيها : فرس ضأن ضال خيل خال خمسة كبير ملك معزى سطر عشيرة ضيف رواح نلج قبر ضريح ، وبجانب هذا فهناك عدد كبير من اسماء الاعلام العربية ترد فى هذه النقوش مثل أذينه اياس جمال همام وهب ورد حبيب سالم سميع سرى سعد عويذ عجم غانم فهر صباح تيم معن . وبجانب هذه الظواهر التى تجعل من النقوش الصفوية ممثلا للهجة عربيـــة شمالية قديمة فان فيها ظواهر تعكس تأثيرا للغة الآرامية ، ولا غرو فقد كانت الآرامية سائدة فى منطقة الشام والعراق وهى أقرب اللغات جغرافيا للمنطقة التى وجدنا فيها النقوش الصفوية فى بادية الشـــام والعراق وسيناء ، وتتضح الآثار الآرامية فى بعض أسماء الأعـــلام والمفردات الحضارية .

أما المجموعة الثالثة من النقوش فهى النقوش اللحيانية ، وهذه النقوش تعرف كثيرا من الخصائص التى تجعل الباحثين يدرجونها فى اللهجات العربية المبكرة ، ولنقرأ فيها الأسماء الآتية : عبد ، رب يوم ، بيت ، رأى ، عرض ، نعم ، ملك ، صلم ، مرأة ، شيعة ، حرة ، غلام ، وهذه الالفاظ مما نعرفه فى العربية . وهناك أوجه خلاف بينها وبين العربية التى نعرفها فوزن هفعل يستخدم فى اللحيانية ضـــمن أوزان التعدية ونحن نعلم ان العربية تعرف مقابل هذا وزن أفعل مثل أذهب أكرم ، أما وزن هفعل فنجده في النفوس اللحيانية في الفعل همتع أى متع بالصحة ، وهذا الوزن غريب عن العربية . وفوق هذا فاداة التعريف فى النقوش اللحيانية هى الهاء على نفس النحو الذى نعرفه فى اللغة العبرية ، هذا ولم تكن الجماعات السامية القديمة فيما

يبدو اداة للتعريف فطورت كل لغة سامية وسائلها الخاصة بها للتعريف فأل فى العربية تقابل الهاء فى العبرية ، اما الآرامية فعرفت الفتحة الطويلة فى آخر الاسم وسيلة لتعريفه .

وفوق هذا وذاك فكل النقوش الصفوية والثمودية واللحيانيـة تشترك فى عدد من الخصائص اللغوية الأساسية التى تاخـذها من كتاباتهم بامكانياتها التعبيرية المحدودة مما يجعلنا نقول انها من اللهجات العربية المبكرة . غير أن كل هذه اللهجات لاتمثل العربية الفصحى المتطورة التى وصلتنا فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم . فهناك فرق بين وجود بعض الظواهر اللغوية الصرفية أو المعجمية المشتركة وبين كون هذه النقوش ممثلة لنفس المستوى الذى عرفته لغة الشعر الجاهلى . ان لغة النقوش مرحلة فى طريق التطـور الطويل الذى عرفته العربية من العهد السامى القديم قبـل القرن الخـامس والعشرين قبل الميلاد حتى وصلت فى الشعر الجاهلى الى مستوى رفيع .

وليس الثموديون والصفويون واللحيانيون وحـدهم هم أصحاب النقوش التى وجدناها فى صحراء الشام والعراق ، فالنبط أيضـا شعب عربى ونعرف هذا من أسماء الأعلام عندهم ولكنهم لم يكتبـوا بالعربية وكتبوا بالآرامية لغة الحياة الدولية آنذاك ، ولكن للنبط أهمية كبرى فى تاريخ العربية وخطوطها ، فالنبط هم من علمـوا العرب كيف يكتبون ، والخط النبطى هو صورة متطورة عن الخط الآرامى وهو أساس الخط العربى . وقد استطاع الباحثون فى تاريخ الكتابة تتبع المراحل التى تطورت بالخط عبر النبط حتى وصل الى الصورة التى نعرفها فى أقدم النقوش المدونة بالخط العربى الشمالى. وأقدم هذه النقوش المدونة بالخط العربى نقش زبد المؤرخ سـنة ٥١٢ م ، ونقش حوران سنة ٥٦٨ م ، ونقش أم الجمال الذى يؤرخ أيضا بالقرن السادس الميلادى ، أى انها من تاريخ متأخر نسـبيا اذا قورنت بالنقوش التى وصلتنا باللغات السامية الاخرى . فاهمية

النبط فى هذا المقام ترجع الى دورهم فى تطور الكتابة وتعليمها لغيرهم من العرب ، ان النقوش الثمودية والصفوية واللحيانية تفيـــد فى دراسة العربية ، ولكن لغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم لاتعتبر الامتداد المباشر للغة هذه النقوش . ان هذه اللغة العربية قدوصلتنا فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم فى صورة مصقولة متبلورة ، فكيف تكونت عناصر هذه اللغة الى أن صقلت وتميزت وما العلاقة بينها وبين اللهجات القديمة فى جزيرة العرب ؟

الفصل الخامس

اللهجات العربية القديمة

المصادر القديمة التى تمدنا ببعض الظواهر اللغوية فى اللهجات العربية القديمة تنقسم الى مجموعتين رئيسيتين أولاهما كتب النحو، الثانية كتب اللغة والمعاجم ومعظم المادة التى جاءت فى كتب النحو واللغة انما جمعت من لهجات البادية فى القرنين الأول والثانى. حاول اللغويون الذين جمعوا هذه المادة النظر بمعيار الخطأ والصواب الى كل الظواهر اللغوية التى عرفها عصرهم ولذا رفضوا أخذ اللغة عن القبائل التى عاشت فى مناطق متاخمة للحضر فى بادية الشام أو العراق كما نظروا الى اللهجات العربية في الجنوب بعين الشك ولم يأخذوا اللغة عنها. لم يحاولوا جمع الظواهر بهدف بحثها بحثا شاملا ينسب لكل قبيلة كل ما عندها من ظواهر وانما قصروا همهم على تسجيل بعض الظواهر التى لفتت نظرهم عند بعض القبائل ومن هنا نستطيع أن نقول أن كتب النحو واللغة لم تقدم لنا الا قطاعا صغيرا محدودا من الحياة اللغوية حتى القرن الثانى للهجرة ، وهذا القطاع هو بعض لهجات البدو.

أخذ النحاة واللغويون اللغة عن بعض قبائل شبه جزيرة العرب واستبعدوا عددا كبيرا من القبائل التى اختلطت فى حياتها بغير العرب واستبعدوا كذلك اللهجات الناشئة فى الامصار المفتوحة كما رفضوا

اخذ اللغة عن القبائل الجنوبية . والناظر فى كتب النحو واللغة يلاحظ ان معظم المادة التى جاءت بها تنسب الى لهجات الحجاز وتميم وهذيل وطيء وهناك ظواهر كثيرة جاءت دون نسبة الى قبيلة بعينها . اتخذ جامعو اللغة موقفا مختلفا عن الباحث اللغوى الحديث فقد نظروا الى هذه اللهجات وقاسوها بمعيار اللغة الفصحى واعتبروا أى اختلاف عنها خروجا على النمط الصحيح وخروجا على الضوابط وفسادا لغويا لايجوز أن يقبل ممن يندرج ضمن المثقفين ، ومن ثم فقد اهملوا تلك اللهجات التى اصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعا ولم ينظروا ويهتموا الا باللهجات التى تقترب فى خصائصها من العربية الفصحى وهذه هى لهجات الحجاز وتميم وهذيل وطيء .

وسنحاول دراسة بعض الظواهر التى جاءت فى كتاب سيبويه منسوبة الى هذه اللهجات دراسة لغوية وصفية . وسنبدأ بالاصوات ثم نمضى بعد ذلك الى بناء الكلمة فبناء الجملة .

أول ما يلفت النظر فى لهجة الحجاز من الناحية الصوتية انها لا تعرف تحقيق الهمز أى النطق بالهمزة نطقا متميزا والكتب العربية تتحدث دائما عن تحقيق الهمز وتنسبه الى لهجة تميم وعن تخفيف الهمز أو نطق الهمزة نطقا بين بين تنسبه الى لهجة الحجاز .

قال سيبويه : اعلم أن كل همزة مفتوحة كانت قبلها فتحة فانك تجعلها اذا اردت تخفيفها بين الهمزة والالف الساكنة .. ، وذلك قولك سال فى لغة أهل الحجاز اذا لم تحقق كما يحقق بنوتميم . وواضح من هذا النص أن تحقيق الهمزة عند بنى تميم كان يقابله التخفيف عندأهل الحجاز ، ويعبر سيبويه عن الهمزة المخففة قائلا انها تنطق نطقا يجعلها بين الهمزة والالف الساكنة ، واذا حاولنا فهم كلامه على نحو صوتى لاحظنا أن الهمزة ويعنى بها الهمزة المحققة انما تنطق نتيجة التقاء تام يحدث اغلاقا لحظيا في أقصي الحنجرة يتبعه انفراج مفاجيء يصدر هذا الصوت الذى نعرفه بالهمزة . وهذا النطق يختلف اختلافا جذريا عن نطق الفتحة الطويلة وهو ما يطلق عليه سيبويه « الالف » فالفتحة

الطويلة احدى الحركات ، والحركات تختلف عن الاصوات الساكنه فى اتساع مخرجها وأنه لا يحدث ضيق شديد بسبب عقبة فى سبيل تيار الهواء ، فظهور هذه العقبة بالالتقاء ثم انفراجها من خصائص النطق بالاصوات الساكنة اما الحركات فيمضى تيار الهواء من الداخل الى الخارج دون عقبة ، والهمزة من الاصوات الساكنة ولكن الحركه الطويلة التى تكتب فى الخط العربى بالألف ليست من الاصوات الساكنة . ويبدو ان تخفيف الهمزة كان يعنى عند سيبويه أن الالتقاء التام الذى يحدث اغلاقا لحظيا فى اقصى الحنجرة لم يحدث وان الهواء المندفع الى الحنجرة كان يمضى من فتحة ليست بالاتساع المعروف فى نطق الحركات .

من الظواهر التى ذكرها سيبويه ظاهـــرة « الامالة » والامالة احدى الظواهر الخاصة بنطق الفتحة الطويلة نطقا يجعلها بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة ، يقول سيبويه فى هذا :

« الألف تمال اذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك عابد وعالم ومساجد ومفاتيح ... انما امالوها للكسرة التى بعدها ارادوا أن يقربوها منها وجميع هذا لا يميله أهل الحجاز » .

ويتضح من هذا النص أن الامالة ظاهـــرة من ظواهر المماثلة ، والمماثلة تعنى أن صوتا من الاصوات فى كلمة أوما يشبه الكلمة اثر فى صوت آخر فى نفس الكلمة فجعل نطقه قريبا من نطقه اى جعل نطقه مماثلا لنطقه ، وفى شرح سيبويه لهذه الظاهرة تعليل بأن امالة الفتحة الطويلة انما حدث نتيجة لقربها من الكسرة ، فيتحدث سيبويه عن الالف ونتحدث نحن عن الفتحة الطويلة ويعتبر سيبويه الالف غير الممالة أصلا والممالة فرعا ، ونتحدث ـ نحن ـ عن اختـــلاف اللهجات فالامالة فى الامثلة التى ذكرها وهى عالم عابد ، تعنى نطق الألف الطويلة بصورة ما تجعلها قريبة ـ نطقا ـ من الكسرة التى تلى اللام والباء وهذا يعنى أن الفتحة الطويلة الممالة انما تأتى فى محيط صوتى بعينه دون غيره ، ومن هنا فنحن نتحدث عن صورة صوتية لا عن وحدة صوتية . فالفتحة

الطويلة في تلك اللهجات لها صورتان : صورة بلا أمالة وصورة بالامالة وكلاهما وحدة صوتية واحدة ولهجة الحجاز القديمة لاتعرف الامالة.

بقى أن نشير الى المثال الاخير الذى ذكره سيبويه وهو مفاتيح، فالامالة هنا فى تفسير سيبويه أثر للكسرة وكأنه تصور فى كلمة مفاتيح الكسرة شيئا والياء شيئا آخر فالواقع أن نظرة النحويين العرب للخط جعلهم يتصورون أن ما نطلق عليه كسرة طويلة هو كسرة ثم ياء ساكنة ولهذا لم يجد سيبويه نفسه مضطرا لأن يقول أن الامالة حدثت كأثر لمد الياء (الكسرة الطويلة) وكفاء أن وجد الكسرة هنا وهناك ، هذا وقد علل سيبويه ظاهرة الامالة بالتماس الخفة ، وهذا الرأى هو التفسير السائد فى علم اللغة الى عهد قريب فكان كل تطور يفسر بعامل السهولة ولكن البحث الحديث لا يسلم بهذا لاننا نجد الظاهرة وعكسها فى كثير من اللغات ، واخيرا لابد من الاشارة الى أن الامالة لم تعرف فى القرن الثانى فى لهجة الحجاز .

ولنحاول المضى قليلا مع سيبويه وهو يتحدث عن الامالة يقول سيبويه : هذا باب ما يمتنع من الامالة من الألفات .. فالحروف التى تمنعها الامالة هذه السبعة الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء اذا كان حرف منها قبل الألف والألف تليه ، ذلك قولك :قاعد غائب خامد صاعد طائف وضامن وظالم انما منعت هذه الحروف الامالة لانها حروف مستعلية الى الحنك الاعلى والالف اذا خرجت من موضعها استعملت الى الحنك الاعلى فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها كما غلبت الكسرة عليها فى مساجد .. ولانعلم احدا يميل هذه الالف الا من لا يؤخذ بلغته .

وهذا النص واضح فى أن الامالة صورة لنطق الفتحة الطويلة وأن هذه الصورة تتأثر بالمحيط الصوتى فهى ممالة على مقربة من الكسرة أو الكسرة الطويلة وهى غير ممالة على مقربة من مجموعة من الاصوات، واذا نظرنا الى تلك الاصوات التى ذكرها سيبويه مانعة للامالة لاحظنا وجود كل اصوات الاطباق وهى الصاد والضاد والطاء والظاء والقاف

كما نجد من اصوات الحلق الغين والخاء ، يبدو أن اللهجات التى كانت تميل مع الكسرة والكسرة الطويلة كانت تنطق الفتحة الطويلة بلا امالة اذا كانت قريبة من اصوات الاطباق أو الحلق . وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن تلك اللهجات عرفت صورتين لنطق الفتحة الطويلة كل واحدة منها تظهر فى محيط صوتى بعينه . والعبارة الاخيرة فى نص سيبويه السابق تشير الى موقف اللغويين من بعض اللهجات فهو لم يسجل الا بعض اللهجات ورفض الاخذ عن البعض الآخر ، ويبدو ان بعض اللهجات التى رفض سيبويه الأخذ عنها كانت تعرف الامالة بصورة أكثر ولكن الى أى حد ؟ هذا ما لم نستطع أن نعرفه فهذه من لغة « من لا يؤخذ بلغته » ولذا لم يجد سيبويه نفسه مطالبا بتسجيلها ودراستها .

مما سجله سيبويه فى كتابه ظاهرة يطلق عليها عند اللغويين المحدثين اسم Vowel Harmony وهو ما آثرنا ترجمته الى العربية باسم « التوافق الحركى » وهذه الظاهرة تدخل ايضا فى باب المماثلة وهى مماثلة حركة لحركة اخرى مماثلة تامة فنحن نقول فى العربية الفصحى : منه فوقه تحته ، فنجعل الحركة التالية للهاء ضمة ولكنا نقول : به عليه فيه ، فنجعل الحركة التالية للهاء كسرة والضمير هو الضمير فلماذا احدث هذا الاختلاف ؟ ولنقرأ سويا الفصل الذى عنونه سيبويه بقوله : هذا ما تكسر فيه الهاء التى هى علامة الاضمار ، « أعلم أن أصلها الضم وبعدها الواو لأنها فى الكلام كله هكذا الا أن تدركها هذه العلة التى اذكرها لك ، وليس يمنعهم ما اذكره لك أيضا من ان يخرجوها على الأصل ، فالهاء تكسر اذا كان قبلها ياء أو كسرة فكما أمالوا الالف فى مواضع استخفافا كذلك كسروا هذه الهاء. فالكسرة هنا كالامالة فى الف لكسرة ما قبلها وما بعدها نحو كلاب وعابد وذلك قولك مررت بهى ولديهى مال ومررت بدارهى .. وأهل الحجاز يقولون مررت بهو قبل ولديهو مال ويقرأون (فخسفنا بهو وبدارهو الارض) ، فاذا الحقت الهاء الميم فى غلامة الجمع كسرتها

كراهية الضمة بعد الكسرة ، الا ترى انهما لا يلزمان حرفا ابدا فاذا كسرت الميم قلبت الواء ياء كما فعلت ذلك في الهاء . ومن قال : بدارهو الارض قال : عليهمو مال وبهمو ذلك » .

وهذا النص هام للغاية فسيبويه اعتبر ان الاصل فى ضمير الغائب أن تعقبه ضمة طويلة وهو يتحدث دائما عن الواو فى هذا الصدد كما لو كان الضمير مكونا من هاء تليها واو . وقد حدد سيبويه المواضع التى كسرت فيها هذه الهاء فالهاء تكسر اذا كان قبلها ياء أو كسرة فهذه الظاهرة اذن من ظواهر المماثلة ولكنها مماثلة حركة لحركة ، عندما نتحدث عن «فيه » فالحركة التى بعد الفاء كسرة طويلة أتت بكسرة بعد الهاء ، عندما نناقش كلمة عليه فالصوت المزدوج "ay" جعل الضمة كسرة وهذا أيضا ضرب من التوافق الحركى .

ويبدو أن التوافق الحركى كان يميز بعض اللهجات عن البعض الآخر فبعض اللهجات كان يعرف التوافق الحركى على هذا النحو الذى تعرفه العربية الفصحى ، ولكن لهجة الحجاز كانت بعيدة عنه كل البعد كما نرى فى نص سيبويه عن التوافق الحركى بعدها عن الامالة فالحجازيون كانوا لا يقولون به بكسر الهاء بل قالوا به بضمها أو كما كتب فى كتاب سيبويه بهو وكانوا يقولون لديهو (بواو مسبوقة) بضمة . ولم يقتصر الأمر على هذا بل أن قراءاتهم للقرآن الكريم كانت تعكس لهجتهم المحلية التى لا تعرف التوافق الحركى ، فبينما كان غيرهم يقرأ (فخسفنا به وبداره الارض) بكسرة بعد الهاء كان الحجازيون يستخدمون الضم دون أن يستشعروا حاجة الى التوافق الحركى .

ويبدو أن التوافق الحركى كان من خصائص لهجة تميم وهو ما نجده في الفصحى بينما كانت لهجة الحجاز بعيدة عن التوافق الحركى . ولكن بعض اللهجات مضت في التوافق الحركى شوطا أبعد مما تعرفه اللغة الفصحى ، يقول سيبويه « واعلم ان قوما من ربيعة يقولون منهم (بكسر الميم والهاء والميم) أتبعوها الكسرة ولم يكن

المسكن حاجزا عندهم ، وهذه لغة رديئة ، اذا فصلت بين الهاء والكسرة فالزم الاصل » .

فلهجة ربيعه كانت تستخدم صيغة منهم بكسر الهاء والميم بينما لاتعرف الفصحى اليوم الا ضم الهاء وضم الميم وهو ما قرره سيبويه أيضا فلهجة ربيعة تمثل طوراً ابعد من الفصحى فى التوافق الحركى فالكسرة بعد الميم في منهم جعلت حركتى الضمير كسرتين رغم البعد. وهنا يظهر سيبويه الذى يريد أن يشرع للحياة اللغوية فيقول «وهذه لغة رديئة » .

لاحظ سيبويه ايضا وجود التوافق الحركى فى بعض أبنية الأسماء ، يقول سيبويه : « وفي فعيل لغتان فعيل وفعيل . اذا كان الثانى من الحروف الستة (حروف الحلق) مطرد ذلك فيهما لاينكسر فى فعيل ولا فعل واذا كان كذلك فى فعيل او فعل كسرت الفاء فى لغة تميم وذلك قولك لئيم (بكسر اللام) وشهيد وسعيد ونحيف ورغيف وبخيل وشهد (بكسر الشين والهاء) ولعب وضحك .. اما اهل الحجاز فيجرون جميع هذا على القياس » .

وهذا النص على صعوبته فى الصياغة واضح المضمون ، فالكتب العربية تقدم لنا فعيل (بفتح الفاء) وفعيل (بكسر الفاء) لعدد كبير من المفردات والصيغة الاخيرة تمثل صورة من صور التوافق الحركى فالكسرة الطويلة بعد العين جلبت كسرة سابقة على العين عند من يعرفون التوافق الحركى ومن ثم فهم يقولون فعيل وهذا خاص بلهجة تميم أما لهجة الحجاز التى لاتعرف الامالة او التوافق الحركى فتقدم لنا صيغة فعيل بفتح الفاء .

وشبيه بهذا وزن فعل عند الحجازيين مثل شهد لعب ضحك يقابل هذا الوزن في لهجة تميم كسر الفاء وكسر العين . وهنا تتفق اللغة الفصحى كما نعرفها اليوم مع لهجة الحجاز ومن الجدير بالبحث أن ننظر الى المعجم العربى المتوارث فى ضوء هذه الاختلافات .

ومن الطريف بمكان أن نعلم أن كل اللهجات التى اعترف سيبويه بصحة أخذ اللغة عنها كانت تكسر حروف المضارعة على عكس ما نعرفه في العربية الفصحى اليوم وكان أهل الحجاز هم من لم يعرفوا كسر حروف المضارعة : قال سيبويه :

« هذا باب ما تكسر فيه أوائل الافعال المضارعة للاسـماء كما كسرت ثانى الحروف حين قلت فعل وذلك فى لغة جميع العرب الا أهل الحجاز وذلك قولهم انت تعلم ذلك (بكسر التاء) وانا اعلم (بكسر الهمزة) وهى تعلم (بكسر التاء) ونحن نعلم (بكسر النون) ... وكذلك كل شيء من بنات الواو والياء التى الياء والواو فيهن لام أو عين والمضاعف وذلك قولك : شقيت فانت تشقى (بكسر التـاء) وخشيت فانا اخشي (بكسر الهمزة) وخلنا فنحن نخال (بكسر النون) ... وجميع ذلك مفتوح فى لغة أهل الحجاز وهو الأصل » .

وواضح من الأمثلة التى ذكرها سيبويه أن كسر حرف المضارعة كان مضطردا فى الفعل الثلاثى فى كل اللهجات الا لهجة الحجاز . وان الفعل الناقص أو الاجوف ذا الواو او الياء كان يعرف كسر حرف المضارعة ايضا . ولهجة الحجاز اقرب فى هذا الجانب الى العربية الفصحى .

وفوق هذا وذاك فمن أهم الظواهر اللهجية التى سجلها سيبويه وألقت الضوء على بناء الجملة ظاهرتان : الأولى هى تطابق الفعل الماضي المقدم مع فاعله في التثنية والجمع ، والثانية ما النافية التى اختلفت فيها لهجة الحجاز عن لهجة تميم .

من المعروف فى كتب النحو العربى ان الفعل الذى تلاه فاعله يأتى بصيغة واحدة قبل الفاعل المفرد والمثنى والجمع ، وهذه الصـيغة هى صيغة المفرد الغائب مثل قال رجل / قال رجلان / قال الرجال / قال نسوة ، اما المطابقة الكاملة فى العدد والجنسين بين الفـاعل والفعل فتنسب فى كتب النحو العربى الى بعض اللهجات ، ذكـر البعض المطابقة الكاملة من خصائص لهجة طىء . واطلقـوا على

هذه الخاصية اسم « لغة أكلونى البراغيث » . قال سيبويه : «اعلم أن من العرب من يقول ضربونى قومك ضربانى اخواك فشبهوا هذا بالتاء التى يظهرونها فى قالت فلانه » ، فهذه الظاهرة اذن هى ما نجده فى بعض اللهجات العربية الحديثة ، فهل كانت هذه الظاهرة قاصرة على الحديث اليومى عند طىء أم انها وجدت صدى فى الشعر الذى ابدعه شعراء من طىء وهل كانت عند طىء فقط أم انها انتشرت فكان لها صداها فى شعر من لم يكن من طىء ؟ الواقع ان هذه الظاهرة وجدت فى بعض اللهجات القديمة وفى آبيات من الشعر الجاهلى والاسلامى وهى مطردة فى اللهجات العربية الحديثة .

اختلفت اللهجات القديمة فى الحالة الاعرابية للاسم الثانى بعد « ما » النافية فلهجة الحجاز تجعل الاسم الثانى بعد « ما » وهو خبرها منصوبا ، أما لهجة تميم فتستخدم هذا الاسم مرفوعا . قال سيبويه : هذا باب ما أجرى مجرى ليس فى بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير الى أصله وذلك الحرف هو ما تقول : ما عبد الله اخاك ما زيد منطلقا . واما بنو تميم فيجرونها مجرى اما وهل وهو القياس لانه ليس بفعل كليس ولا يكون فيه اضمار . واما أهل الحجاز فيشبهونها بليس اذ كان معناها كمعناها .. ومثل ذلك قوله عز وجل « ما هذا بشرا » فى لغة أهل الحجاز وبنو تميم يرفعونها الا من عرف كيف هى فى المصحف » .

وبجانب الآية التى ذكرها سيبويه نجد هذه الظاهرة في آية اخرى هى (ما هن أمهاتهم) قرأها الحجازيون بكسر التاء وذلك باعتبار خبرها منصوبا ، اما التميميون فكانوا يرفعون عملا برفع الخبر بعد ما .

وهكذا نلاحظ أن لهجة الحجاز تتفق مع العربية الفصحى التى نعرفها مطردة فى الشعر الجاهلى والقرآن فى ظواهر وتختلف معها فى ظواهر اخرى ، كما أن لجهة تميم لا تمثل العربية الفصحى في كل مظاهرها .

الفصل السادس

التعريب وآثار الأساس اللغوى

يتفق الباحثون فى تاريخ اللغة العربية على ان أهم حدث فى تاريخ هذه اللغة هو ظهور الاسلام وما أعقب هذا من فتح للأقاليم الممتدة من وسط آسيا حتى غرب افريقية . فلم تكن العربية قبل القرن السابع الميلادى الا لغة الاعراب المقيمين فى شمال جزيرة العرب والمتناثرين في بعض مناطق بادية الشام وبادية العراق ، كما كانت العربية لغة سكان مدن شمال جزيرة العرب . وهؤلاء البدو والحضر لم يكونوا اصحاب حضارة راقية اذا ما قورنوا بالمناطق المتاخمة لهم في الشـــام والعراق ومصر ، فلم تكن العربية ذات قيمة حضـــارية كبيرة .

ولكن الفتح الاسلامى بدأ الفترة الحاسمة فى تاريخ العربيـــة . وارتبط الفتح بهجرة مجموعات بشرية ضخمة من شبه جزيرة العرب الى الاقاليم المفتوحة ، هاجرت القبائل واستقرت في الامصار داخل معسكرات ، لقد عاشت القبائل الوافدة في عزلة نسبية عن الســكان الاصليين . وأثناء حكم عمر بن الخطاب (سنة ١٣ الى سنة ٢٣ هـ) حرم على العرب امتلاك الضياع فى الأقاليم المفتوحة كما فرض عليهم الاقامة في معسكرات عربية خططت على اساس قبلى . وأدى هـذا

الى عدم ذوبان الوافدين فى السكان الاصليين ، وبقيت العربية لغة الفاتحين المنتصرين فاكتسبت بهذا مكانة مرموقة فى المجتمع .

وفي العصر الأموى تغيرت الصورة الاجتماعية في الدولة الاسلامية فقد بدأ العرب يختلطون على نحو متزايد مع السكان الأصليين .وكان العرب يمثلون فى ظل الحكم الاموى طبقة أرستقراطية مترفة ، وهذه الطبقة تعتمد على أمرين يربطان أفرادها ، أولهما : الأصل البدوى ، والثانى : القدرة على التحدث بالعربية كأحد أبناء البادية وفى ظل هذا المجتمع كانت الطبقات الدنيا والوسطى ماتزال مرتبطة أن قليلا أو كثيرا باللغات التى سادت المنطقة قبل الفتح الاسلامى ، كانت القبطية لغة الطبقات الدنيا فى المجتمع المصرى وكانت اللهجات الآرامية تسود لدى معظم سكان الشام وبعض مناطق العراق وكان المغرب العربى يستخدم عددا من اللهجات البربرية . وفى شرق الدولة الاسلامية أى فى العراق وايران والمناطق التى بعدها كانت لغات الحديث مجموعة من اللهجات الايرانية . وفوق هذا وذاك فقد كانت العربية الجنوبية وهى لغة تختلف أختلافا كبيرا عن العربية الشمالية ماتزال سائدة فى مناطق شاسعة فى جنوب جزيرة العرب . ولذا فقد كان التحدث بالعربية دليلا على التفوق الاجتماعى . بينما كان استخدام اللغات أو اللهجات الأخرى دليلا على الضعة الاجتماعية .

فى ظل هذه الظروف كان من الطبيعى أن يحرص سادة المجتمع على تنشئة أبنائهم في بيئة عربية بدوية حتى يستقيم لهم الانتظام فى الطبقة الحاكمة وحتى يتضح تميزهم عن الطبقات الدنيا . والكتب العربية حافلة بروايات تروى لنا ان سادة المجتمع وأمراء البيت الأموى كانوا ينظرون نظرة فزع الى أى خطأ لغوى يقع فيه أبناؤهم وكانوا يحرصون كل الحرص على أن يستخدم أبناؤهم اللغة العربية وينطقون بها على النحو الذى يعرفه البدو الذين لم تفسد لغتهم بالاختلاط بالأعاجم .

ولعل أهم ما يلاحظ فى تاريخ اللغة العربية ابتداء من الثلث الأخير من القرن الأول الهجرى أنها أصبحت ذات مكانة مرموقة وطيدة في الدولة الاسلامية وذلك لعدة أسباب أهمها أن :

(١) العربية أصبحت اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ، فقد عربت الدواوين حوالى سنة ٨٧ هـ.

(٢) العربية كانت لغة الطبقات الحاكمة في المجتمع واستخدام الفصحى دليل على الرقى وعلى المكانة الاجتماعية .

(٣) العربية المولدة أى التى بها أخطاء كانت لغة الطبقات الدنيا فى المجتمع .

(٤) العربية الفصحى ظلت لغة الشعر الذى تعتز به الطبقات العليا من المجتمع .

(٥) العربية هى لغة الدين ولغة القرآن الكريم ولغةالعبادات.

كان تعلم العربية هو أساس العمل في الدواوين وأقبل كثير من غير العرب على هذه الأعمال بعد تعلمهم للعربية واجادتهم للكتابة بها مما دفع أقرانهم الى محاكاتهم ، وكان ينظر طوال العصر الأموى الى اجادة النطق بالعربية على انها صفة من صفات الارستقراطية العربية ولذا كان سادة البيت الأموى يرسلون ابناءهم الى البادية لينشئوا فى جو عربى بدوى وحتى يدرجوا على استخدام العربية على النحو الذى كان معروفا عند البدو وكان سادة البيت الأموى يفزعون اشد الفزع عند ملاحظاتهم لبعض الاخطاء اللغوية عند الناشئة من ابنائهم فقد كانوا يعتزون بالعربية في صورتها البدوية اعتزازهم بعروبتهم أى بأنهم من أصل بدوى .

وكثير من الأعاجم أقبل على العربية لا لمجرد التعبير بها تعبيرا يفى بمطالب الحياة اليومية بل كى يرتفع فى المجتمع . فزياد الأعجم وهو كما يبدو من اسمه من أصل غير عربى يتعلم العربية لينطلق الى التأليف فى الشعر وها هو ينظم الشعر رغم أن نطقه مشوب بلكنة

أجنبية ، حتى أن أحد الولاة أهداه غلاما سليم النطق ليقوم بالقاء شعره . وقد كان شعره على النمط القديم حتى آن سيبويه لم يجد غضاضة فى الاستشهاد بأبيات من شعره ، ويبدو أن أبن قتيبة حين ذكر أن زيادا الاعجم كثير اللحن ، كان يعنى نطقه السقيم دون أى شيء آخر .

حاولت الطبقات غير العربية فى المجتمع الاسلامى تعلم اللغة العربية ، فالعربية لغة القرآن الكريم ولغة الصلاة ، وقد أدى دخول معظم سكان المناطق المفتوحة في الاسلام الى ظهور الرغبة لدى هؤلاء لدراسة القرآن الكريم لفهم احكام الاسلام وللعمل فى ضوئها . ولذا نجد ان الاشتغال بنص القرآن الكريم ومحاولة فهمه وتقريبه أول مظهر للبحث العلمى فى المجتمع الاسلامى .

وقد حدث الانتقال الى العربية شيئا فشيئا ، فالتحول اللغوى سواء في لغة الكتابة أم في لغة الحديث لا يحدث في جيل واحد بل يمتد الى اكثر من جيل . وتعتمد سرعة الانتقال أو التحول من لغة الى اخرى على مجموعة من العوامل منها مدى القرابة بين اللغة القديمة واللغة الوافدة . ومن المعروف ان الانتقال من لغة سامية الى لغة سامية اخرى أمر سهل ميسور ، ولذا فقد تعربت منطقة الشام والعراق فى مرحلة مبكرة نسبيا فقد كانت اللهجات الآرامية المختلفة الكثيرة عددا والمتقاربة فى بنيتها تسود هذه المنطقة وهذه اللهجات قريبة من العربية من اكثر من جانب ، وكان من السهل على المتحدث بالآرامية أن يتعلم العربية بينما لم يكن الانتقال من القبطية أو البربرية الى العربية سهلا قريب المنال . ولذا تم تعريب مصر في فترة استمرت زمنا أطول من الفترة التى عربت فيها سوريا والعراق والجنوب العربى . وينبغى أن نشير الى أن المناطق الجبلية تستعصي على التحول اللغوى والدينى ، لذا فالمناطق غير السهلة فى العراق ماتزال تحتفظ بلغات قديمة سبقت العربية في هذه المنطقة ، ومعظم سكان هذه القرى غير العربية لم يعتنقوا الدين الاسلامى . والملاحظ

أن القرى الآرامية في سوريا مثل المعلولة ، وفي العراق مثل القوش تقع في مناطق جبلية وعرة . ويبدو أن تعريب المناطق الجبلية أو النائية فى سوريا والعراق امتد وقتا أطول من زمن تعريب المدن ومناطق السهول .

وقد سجل الجاحظ اعجابه واعجاب عصره بحديث الاعراب ، يقول : « ليس فى الارض كلام هو امتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ فى الاسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع الى حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء » ، وهذا الكلام يعلن موقفا عاما فى القرن الثانى للهجرة .

وقد لاحظ الجاحظ اختلاف لهجات الأمصار الجديدة وعلل هذا تعليلا علميا سليما ، فقال بأن الاختلاف يرجع الى لهجات القبائل الوافدة التى احتك بها واتصل بها السكان الأصليون في تلك المناطق. يقول الجاحظ : « وأهل الامصار انما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك تجد الاختلاف في الفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر . فسكان البصرة يستخدمون كلمة قدر والجمع قدور لأن العرب الذين نزلوا البصرة كانوا يستخدمون الكلمتين ، بينما يستعمل أهل مكة كلمة برمه والجمع برم . « ويسمى أهل مكة البيت اذا كان فوق البيت عليه وجمعها علالى ، بينما أهل البصرة يتحدثون عن الغرفة والغرفات والغرف . ويستخدم أهل مكة كلمة الكافور بينما يتحدث أهل البصرة عن الطلع . وفوق هذا وذاك فان الجاحظ يلاحظ انتشار الألفاظ الفارسية في المدينة والبصرة والكوفة . يقول : « ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم أناس من الفرس في قديم من الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم لذلك يسمون البطيخ الخربز ويسمون السميط الروذق ويسمون المصوص المزوز ويسمون الشطرنج الاشترنج .. » كما يسجل الجاحظ ايضا أن : « أهل البصرة اذا التقت اربع طرق يسمونها مربعة ويسميها أهل الكوفة الجهارسو والجهارسو بالفارسية

ويسمون السوق أو السويقة وازار والوازار بالفارسية ويسمون القثاء خيارا والخيار فارسية » .

سجل الجاحظ كذلك بعض العبارات التى استخدمت فى فى لغة الحديث اليومى بين الجيش العربى الفاتح وبين المتعاونين معه من الأمصار المفتوحة ، وهذه العبارات على قلتها تعكس صورة من الحياة اللغوية فى ذلك العصر ورغم أنها ممسوخة الا أنها طريفة .. يحكى الجاحظ أن الحجاج قال لأحد تجار الدواب الخراسانيين الذين كانوا يبيعون الدواب للجيش الاسلامى :

الحجاج : أتبيع الدواب المعيبة الى جند السلطان ؟

التاجر : شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مداينها وكما تيجى تكون .

الحجاج : ما تقول ويلك ..

فقال بعض من كان قد اعتاد سماع الخطأ .. حتى صار يفهممثل ذلك : يقول شركاؤنا بالاهواز والمدائن يبعثون الينا بهذه الدواب فنحن نبيعها على وجوهها .

الملاحظ فى هذا النص أن الحجاج لم يفهم ما قاله التاجر الخراسانى وهذا أمر لانستبعده ، فالذى درج على استخدام اللغة متحدثا وسامعا وفق نسق معين لايفهم نفس اللغة اذا استخدمت بطريقة مختلفة عما درج عليه . اللهم الا اذا كان لديه مران على فهم هذه اللغة بتغيرات مختلفة . واذا نظرنا الى الجملة التى قالها التاجر نلاحظ أنه استخدم كلمة شريكاتنا بدلا من «شركاؤنا » أى أنه استخدم صيغة جمع المؤنث محل جمع التكسير ، والجمع المؤنث السالم وجمع المذكر السالم من الصيغ القياسية السهلة أما جمع التكسير فصعب وليس من السهل على أجنبى حديث العهد بالعربية أن يدرك صيغة جمع التكسير في وضوح ، فجمع المذكر السالم له صيغتان كل واحدة منهما تتكون من الاسم الأصلى في حالة الافراد

يضاف الى ذلك نهاية ثابتة وأسهل من هذا جمع المؤنث السالم فله صيغة واحدة باضافة الألف والتاء . أما جمع التكسير فله أكثر من أربعين صيغة يتحول فيها شكل المفرد تحولا جذريا الى صيغة جديدة ومن ثم فاستخدام هذا التاجر الخراسانى لصيغة الجمع السالم شبيه باستخدام الأطفال العرب لصيغة الجمع السالم بدلا من جمع التكسير أو اسم الجمع عندما يقولون : أنكليزيون المانيون يهوديون. نلاحظ أيضا فى الجملة التى قالها التاجر استخدام النسبة الى الاهواز بأن قال هوازها على نحو لم تعرفه العربية والجملة مختصرة اختصارا شديدا لا تكاد تمضى على النسق الذى عرفته لغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم .

سجل الجاحظ ايضا عبارة مشابهة يقول الجاحظ : « وقلت لخادم لى فى أى صناعة أسلم هذا الغلام ؟ قال أصحاب سند نعال . يريد فى أصحاب النعال السندية » نلاحظ هنا التعبير المركب سند نعال بدلا من التعبير العربى النعال السندية أو نعال السند والعربية لا تعرف هذه التعبيرات المركبة وانما تعبر عن هذا المعنى بالموصوف والصفة أو المضاف والمضاف اليه ولكن بعض اللغات الهندية الاوروبية والفارسية لغة منها تعرف التعبيرات المركبة . وواضح أن مستخدم التعبير سند نعال متأثر بالأساس اللغوى الفارسى .

ويلاحظ الجاحظ أن هذه العبارة الغريبة عن الذوق العربى لم تكن سهلة الفهم على من لم يعتد سماع مثل هذا ويمضى الجاحظ فيقول : « ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت الى ابو زيد ورأيت ابى عمر ، ومتى وجد النحويون اعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمع منه لان ذلك يدل على طول اقامته في الدار التى تفسد اللغة وتنقص البيان » .

ومن الطريف أن نجد عند الجاحظ ملاحظات قيمة عن أثر الاساس اللغوى فى نطق متعلمى العربية من الشعوب المفتوحة . يقول

الجاحظ : « وقد يتكلم المغلاق الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة وقد يكون لفظه متخيرا فاخرا ومعناه شريفا كريما ويعلم مع ذلك السامع من الكلام ومخارج حروفه انه نبطى . وكذلك اذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة فانك تعرف من اعرابه وتخير الفاظه فى مخرج كلامه انه خراسانى وكذلك ان كان من كتاب الاهواز . ومع هذا فانا نجد الحاكية من الناس من يحكى الفاظ سكان اليمن من مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئا وكذلك تكون حكايته للخراسانى والاهوازى والزنجى والسندى والحبشي وغير ذلك ـ نعم ـ حتى تجده كأنه أطبع منه » .

وفي موضع آخر يفصل الجاحظ بطريقة أدق مالوحظ من أثر للاساس اللغوى الاجنبى فيقول : « ألا ترى أن السندى اذا جلب كبيرا فانه لايستطيع الا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام فى عليا تميم وسفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاما . وكذلك النبطى القح خلاف المغلاق الذى نشأ فى بلاد النبط لان النبطى القح يجعل الزاى سينا فاذا اراد ان يقول زورق قال سورق ويجعل العين همزة » .

وفى مواضع اخرى يسجل الجاحظ ان ابا مسلم الخراسانى لم يكن يستطيع النطق بالقاف فكان يقول بدلا من قلت كلت ومن قمر كمر ، والملاحظ ان القاف من اصوات الاطباق التى لا تعرفها الفارسية ولذا كانت صعبة النطق على فارسى يتعلم العربية . ويروى الجاحظ أن زيادا الاعجم كان يجعل السين شينا ، ويفهم من هذا النص أنه لم يكن يميز بينهما تميزا واضحا ، وكان زياد الاعجم لا ينطق بالطاء كما ينبغى أن يكون بل يجعلها تاء أى أنه لم يستطع نطق الطاء المطبقة وابدلها بصوت غير مطبق كما لاحظنا عند أبى مسلم الخراسانى . ويذكر الجاحظ ان كثيرا من مواطنى الدولة الاسلامية من غير العرب لم يكونوا يميزون تمييزا واضحا بين الدال والذال ولا شك أن هؤلاء كانوا من المجتمع اللغوى الآرامى لان الدال والذال فى الآرامية صورتان صوتيتان لوحدة صوتية واحدة . ونظرا لان استخدام صورة

صوتية فى أى لغة محل صورة صوتية اخرى لنفس الوحدة الصوتية لا يغير المعنى فلم يكن المتحـــدث بالآرامية يجد فرقا في المعنى بين استخدام الدال محل الذال أو الذال محل الدال .

ويطلق الجاحظ على هذه الظاهرة ظاهرة عدم قدرة المســتعمرين على النطق بالاصوات العربية اسم اللكنة بضم اللام يقول الجاحظ : « ويقال فى لسانه لكنة اذا ادخل بعض حروف العجم فى حروف العرب جذبت لسانة العادة الاولى الى المخرج الأول» .

فاصطلاح اللكنة محدد بهذا النوع من الخطأ فى النطق واللكنة أثر مباشر للأساس اللغوى وكل الاصوات العربية التى لم تعرفهـا لغات الأساس اللغوى تشكل نوعا من الصعوبة وتنطق بلكنة .

ينبغى أن نقف قليلا عند المصطلحات الاخرى المعبرة عن العجز في الاداء النطقى عند الجاحظ . أهم هذه المصطلحات الحبسة والحكلة واللثغة وكلها بوزن فعلة بضم الفاء يقول الجاحظ : «ويقال فى لسانه حبسة اذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفأة والتمتـــام . واذا قالوا في لسانه حكلة فانما يذهبون الى نقصان آلة المنطق » . ويعنى الجاحظ بكل من الحبسة والحكلة عيبين من عيوب النطق على المستوى الفردى ، وينبغى أن نذكر أن كليهما مرتبط بالظروف الخاصة للفرد ويخرج عن نطاق البحث فى اللغة كنظام ، الى البحث فى اللغة كظاهرة نفسية ، أى أن دراسة الحكلة والحبسة ليست من البحث فى علم اللغة بل هما من علم النفس اللغوى .. فعلم اللغة يعنى باللغة كظاهرة اجتماعية ولا يهتم بالاختلافات الفردية الا اذا اصبحت سارية المفعول فى المجتمع . معنى الحبسة عند الجاحظ عدم السلاسة فى النطق ومعنى الحكلة عدم اكتمال العادات الصوتيه وعدم قدرة الجهاز الصوتى أو كما يقول الجاحظ نقصان آلة المنطق عن النطق الواضح المبين .

الفصل السابع

تطور العلاقات اللغوية حتى أواخر القرن الرابع الهجرى

كانت لغة البدو لاتزال حتى القرن الثانى من الهجرة موضع اعجاب ، وكان البدو حجة فى أمور اللغة وكان اليهم المرجع اذا اختلف النحاة ، وكثيرا مااختلفوا فعرفت مجتمعات العراق عددا من البدو الوافدين المعتمدين على ثقة المجتمع فى صحة لغتهم ، جاء هؤلاء واستقروا على مقربة من المدن يبيعون الغريب لكل نحوى يلجأ اليهم وكل لغوى ينشدهم مادة لكتاب أو لرسالة ، وعندما اختلف سيبويه مع الكسائى فى مدى صحة التعبيرين : ((فاذا هو اياها)) أو ((فاذا هو هى)) احتكم الى البدو فعندهم الخبر اليقين ، ويفسر البعض اختلاف الضوابط البصرية فى النحو عما قال به الكوفيون بأن هـــذا يرجع لاختلاف لهجات البدو الذين أخذ عنهم كل فريق ومن المعروف أن النحاة العرب لم يحاولوا توزيع الظواهر اللغوية توزيعا واقعيا بأن يقرروا لكل قبيلة ماعندها من أصوات وأبنية بل نظروا الى كل هذا بمعيار الصحة والخطأ واعتبروا البدو حجة لايرقى اليها الشك ، وكل اختلاف بين اللهجات كان ينظر اليه بمقياس الصحة والخطأ أو المفاضلة بين الصور اللغوية ان كانت كلها بدوية كان يقال هذا فصيح وهذا أفصح .

كان الامويون مرتبطين بالبادية مؤمنين بتنشئة الابنـــاء فى بيئة

لغوية بدوية ، ولكن العباسيين آمنوا بضرورة اجادة الابناء للعربية غير أنهم لم يكونوا مرتبطين فكريا أو عاطفيا بالمجتمع البدوى وأرادوا لابنائهم حياة رغدة فى قصور بغداد ومعرفة جيدة بالعربية ، ولهذا يظهر الأعراب فى قصور السادة الجدد يعلمون اللغة ، واذن فقد اختلفت الصورة ، قديما كان الابناء يرسلون الى البادية وفى القرن الثانى كان الأعراب يفدون الى القصور يعلمون اللغة .

ويبدو أن المثقفين فى القرن الثانى من الهجرة كانوا يحاولون استخدام العربية الفصحى فى حديثهم ولم يقصروها على الكتابة ، وهناك مجموعة من الاخبار تروى أن حمادا الراوية : « كان يكذب ويلحن ويكسر» أو أنه : «لحنة لحانة» ويروى عن حماد أنه قال عن نفسه : «انى رجل أكلم العامة فاتكلم بكلامها» ويرى البعض أن هذا الاتهام انما نشأ من التأثر بالخصومة التى كانت بين حماد وبين غيره من الرواة . كما يروى أن الفراء وهو نحوى كوفى لحن مرة بمحضر هارون واعتذر قائلا بأن اللحن عند سكان المدن كالاعراب عند أهل البادية . كما يروى أن أبا حنيفة استخدم كلمة كلوب جمعا لكلب قياسا على قلب قلوب ، ولاشك أن هذا الخبر انما قصد من وضعه التشهير بمبدأ القياس فى الفقه والنحو . واذا نظرنا الى طبيعة الاخطاء التى تنسب الى المثقفين فى القرن الثانى لاحظنا انها تتناول الخلط بين الحالات الاعرابية كأن يقول أحدهم : أن نقم بالجزم بدلا من أن نقوم بالنصب أو أن يستخدم متحدث حالة النصب بعد حرف جر كأن يقول بخيرا وكأنه يقول خيرا ، أو ان يخلط المتحدث بين صيغ الممدود وصيغ المقصور كأن يقول قفاء بدلا من قفا . وهذه الامثلة نادرة ولكنها تعكس أمرا مأخوذا من لغة الحديث اليومى لا لغة الكتابة وندرة هذه الامثلة دليل على أن لغة الحديث عند مثقفى القرن الثانى كانت هى الفصحى أو أنهم حاولوا استخدام الفصحى، ولو كانت لغة حديثهم هى اللهجات المحلية لما ذاعت أخطاؤهم هذه . لغة المثقفين كانت هى الفصحى بينما كانت اللهجات المحلية المختلفة

هى وسيلة التفاهم عند السواد الأعظم من سكان الدولة الاسلامية .

على أن محـــاولة الابتعاد عن اللهجات المحلية وتوهم الاختلاف الشاسع بين الفصحى واللهجات المحلية فى غير أماكن هذا الاختلاف دفع الى عدد من الأخطاء والى خـروج على ضوابط البنية اللغوية للعربية الفصحى . ومن ذلك جمع كلمة معيشة على معائش خـلافا للصيغة القياسية معايش ، لان الاخيرة لاتعرف الهمز ، والهمز من الظواهر التى تميز بين العربية الفصــحى وبعض اللهجات القـديمة فأراد من قالوا «معائش» جعل الكلمة فصيحة فأضافوا اليها الهمزة فى غير موضع لها . فقد اعتقدوا أن المفرد معيشة على وزن فعيلة دون أن يعلم بأن الميم هنا ليست من أصل الكلمة ، وجمع فعيلة فعائل مثل كريمة كرائم ولكن معيشة هى فى واقع اللغة بوزن مفعله الذى يجمع على مفاعل فتكون صيغة الجمع القياسية معايش بلا همزة ولكن هذا لم يدر فى ذهن من جمع معيشة على معائش لانه يعتقد أن الهمزة تكسب الكلمة طابعا فصيحا فأضافها فى غير موضعها ويطلق على هـذه الظاهرة اسم Hyperurbanism أى المبالغة فى تقليد الفصحاء أو التفاصح .

ودفع الاعجاب بلغة البدو الى محاولتهم اظهار اختلافهم فى النطق عن أهل الحضر فكانوا يتشدقون أويتشادقون وكانوا يحفلون بالغريب ويهتمون به غاية الاهتمام ولذا نجد فى كتب اللغويين اهتماما بالغريب أى بالالفاظ الغريبة النادرة وحاول بعض البدو ارضاء رغبة اللغويين فى استخدام الغريب وولعهم به واخترعت بعض الشخصيات الاسطورية ونسبوا لها بعض الاقاصيص . يروى عن أبى علقمة أنه كان نحوياولاتذكر كتب الطبقات أى شىء عنه أو عن تلاميذه أو عن مؤلفاته أو عن آرائه انها لاتذكر أى شىء الا أنه كان مريضا وذهب للطبيب فاخبره بعبارات غريبة لاتفهم فرد عليه الطبيب بعبارات لاتقل غموضا وعنـــدما رد أبو علقمة قائلا للطبيب لم أفهم ماقلت قال الطبيب وهـل فهمت أنا

ماقبلت ، وهناك رواية أخرى عن عبارات قالها أبو علقمة والملاحظ أن هذه العبارات اخترعت اختراعا ونسبت الى شخصية لم تر النور ، كان هذا تعبيرا عن ولعهم بالغريب والالفاظ النادرة البدوية تعبيرا عن روح العصر فى تمجيده للحياة البدوية .

دخلت العربية فى العصر الاموى مجالا جديدا هو مجال التأليف، فاذا نظرنا الى التراث العربى قبل ذلك العصر لاحظنا أنه يتركز فى الشعر القديم والامثال يضاف الى هذا أن القرآن الكريم بالعربية . ولم يعرف المجتمع التأليف بالعربية واستخدامها كلغة كتابة الا فى العصر الاموى ولعل من الطريف أن يكون ابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢هـ من أوائل من استخدموا العربية كلغة كتابة . وقد ترجم من البهلوية الى العربية مجموعة من الكتب منها خداى نامة أى أخبار الملوك ، كما ترجم أيضا كتاب كليلة ودمنة ، وبذا دخلت العربية الى مستوى جديد من مستويات الاستخدام اللغوى ، فلم تعد العربية لغة الشعر فقط بل أصبحت أيضا لغة التأليف والثقافة . فكان على كل من يعيش فى الدولة الاسلامية ويرغب فى الاسهام بالتأليف أن يتعلم العربية ليترجم اليها أو يكتب بها أو يفهم المأثور الذى كتب بها . ولاشك أن استخدام العربية فى مستويات جديدة دفع الى تجديدات لغوية بعيدة المدى فسيبويه يتحدث عن الاسم والفعل والحرف كاصطلاحات ذات معنى محدد ، وشتان بين المعنى القديم لهذه المفردات فى لغة البادية اليومية وبين المعنى الاصطلاحى المحدد ، فسيبويه خلع على هذه الكلمات مدلولا علميا وهو حين يتحدث عن الهمس والجهر والمخارج انما يبتكر اصطلاحات يستقيها وينتقيها من خضم لغة الحديث ويستخدمها كاصطلاحات علمية محددا معناها تحديدا يتفق مع طبيعة الاصطلاح العلمى . والخليل عندما اكتشف أوزان الشعر العربى وضع لهذه الاوزان أسماء لم تكن تخطر للشعراء على بال ، لقد أخذ اصطلاحات الطويل والخفيف والبسيط والكامل .. الخ من لغة الحياة

العامة واستخدمها استخداما حدد لها دلالة جديدة . وفى كل فـروع المعرفة نجد ظهور اصطلاحات علمية مع ظهور العلم نفسه .

ومن الطريف مالاحظه الجاحظ بشأن المصطلحات التى استدعت وجودها العلوم المختلفة التى جـدت فى العصر العباسى ، فلاحظ أن المتكلمين ، اشتقوا من كلام العرب تلك الاسماء . وهم اصطلحوا على تسمية مالم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشى وذكروا الهوية والماهية واشباه ذلك كما وضع الخليل بن أحمد لاوزان القصيد وقصار الارجاز ألقابا ولم تكن العرب تتعارف تلك الاعاريض بتلك الالقاب وتلك الاوزان بتلك الاســماء كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك كما ذكر الاوتاد والاســباب والخرم والزحاف وكما ســمى النحويون فذكروا الحال والظرف وما أشبه ذلك وأصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء وجعلوها علامة للتفاهم .فالجاحظ يلاحظ وضع هذه الاسماء كمصطلحات علمية وهذه الكلمات اما جديدة فى الصياغة مثل الماهية أو ذات معنى اصطلاحى جديد مثل البسيط والكامل .

وهكذا دخلت العربية عصر الثقافة الاسلامية ، كانت لغة بعض القبائل البدوية فى شمال جزيرة العرب فصارت لغة الدولة الاسلامية من ايران الى الاندلس ومن الشام الى اليمن ، وكانت لغة الحيــاة اليوميــة البــدوية البسيطة فأصبحت لغة العلوم وأداة حضــارة راقية .

عندما كانت العربية لغة بعض القبائل البدوية فى شمال ووسط جزيرة العرب كانت اللغة تعيش دون موقف مدرسى أو تقنين نظرى ، كانت فى مرحلتها المتطورة المتأثرة بما تتأثر به الحياة اللغوية من مؤثرات لم يكن هناك موقف مدرسى أو دينى تجاه اللغة ، ولكن خروج القبائل مع الجيوش الاسلامية داعية للاسلام معربة الاقاليم المفتوحة أحدث

تغيرا لغويا وظهرت عند المستعربين ظواهر جديدة أزعجت الحس اللغوى لمن كان قد أعجب بالعربية البدوية ومن وجد فى لغة القرآن الكريم اللغة المثلى والنموذج الممتاز للتعبير اللغوى ، خرج اللغويون لجمع اللغة من القبائل التى أعجب العصر بفصاحتها ورفضوا أخذ اللغة وتعلمها عن باقى القبائل ، ومعنى هذا أن تعلم اللغة الفصحى غير متاح لمن أراد الا اذا اتجه هادفا لذلك نحو بعض القبائل ، ولكن مجتمع الشام والعراق كان يريد العربية ولكن اعجابه بالبداوة وبحياة البادية قل مع الاجيال التى لم تعرف حياة البادية لقد ارادوا العربية وحياة الحضارة وفى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة كانت حركة العلوم قد بدأت وظهرت بعض ثمارها .

وكان لهذا جانبه فى تعليم اللغة ، فقد ظهرت الرسائل اللغوية التعليمية الأولى فى ذلك الوقت ، لقد ظهرت رسالة صغيرة فى «لحن العامة» تنسب للغوى الكوفى : الكسائى ت ١٩٠ هـ ، وهذا الكتيب يضم مجموعة من المفردات التى شاعت فى القرن الثانى فى صورة رفضها اللغويون لمخالفتها للمأثور عن لغة فصحاء البادية فالمؤلف يعتبر صيغة فعلول بفتح الفاء مثل عصفور برغوث صيغة فاسدة لان المأثور عن لغة فصحاء البادية وزن فعلول بضم الفاء لا بفتحها . والمؤلف يلوم من لايفرق بين قبس وأقبس فهو يرى أن قبس بمعنى أعطى وأما أقبس فبمعنى علم مثال أقبس العلم . والكتاب يعكس لنا صورة من صور الاستخدام اللغوى كما عرفه القرن الثانى للهجرة ، ونحن لاننظر نظرة الكسائى بأن نحكم عليها بالخطأ أو بالصواب بل نحاول أن ننظر اليها كجزء من واقع لغوى عرفه القرن الثانى للهجرة .

أراد الكسائى أن يعلم برسالته فى «لحن العامة» الاستخدام اللغوى الصحيح ، وهذا ماأراده ثعلب أيضا بكتابه «الفصيح» ، ثعلب هو أهم نحوى ولغوى عرفته مدرسة الكوفة فى القرن الثالث للهجرة ، وقد ألف عدة كتب منها كتاب الفصيح الذى يسمى كثيرا باسم «فصيح ثعلب» وقد ذكر ثعلب فيه الالفاظ الفصيحة التى يود تقديمها لمن

أراد تعلم اللغة الفصحى فى صورتها المأثورة القديمة البدوية . كان ثعلب هنا ذا هدف تعليمى . أما ابن قتيبة وهو مؤلف آخر من القرن الثالث الهجرى قلة كتاب بعنوان : أدب الكاتب ، خصص المؤلف فيه فصلا عن اللغة وذكر فيه بعض ارشادات تعليمية تعين على استخدام اللغة الفصحى فى صورتها المأثورة .

وظهور هذه المؤلفات يعكس أمرا جديدا ، فلم تعد اللغة تتعلم سماعا ، وانما أصبحت تؤخذ عن طريق الكتب وفى هذا تحول جديد بدأ مع أواخر القرن الثانى واشتد مع القرون التالية . لقد تغيرت الصورة حتى أصبحت اللغة العربية مادة تعليمية تؤلف فيها الكتب .

وفى القرن الرابع الهجرى كانت العربية تؤخذ تعلما من الكتب لا بمخالطة الاعراب ، ولذا فقد ظهرت مجموعة من الكتب منها كتاب قدامة بن جعفر : جواهر الالفاظ ، وكتاب الالفاظ لابن السكيت وكتاب عبد الرحمن الهمذانى : الالفاظ الكتابية وكلها كتب تعليمية من القرن الرابع الهجرى . ولنقف قليلا عند مقدمة الكتاب الاخير لنجد المؤلف يقول : «... ووجدت من المتاخرين قوما أخطأهم الاتساع فى الكلام فهم متعلقون فى مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة والحرف الشاذ ليتميزوا بذلك من العامة ويرتفعوا عن الاغبياء وعن طبقة الحشوية . فجمعت فى كتابى هذا لجميع الطبقات أجناسا من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة عن الاشتباه والالتباس السليمة من التقعير المحمولة على الاستعارة والتلويح على مذاهب الكتاب وأهل الخطابة دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين ولاغنى للكاتب البليغ ولا الشاعر المفلق ولا الخطيب المصقع عن الاقتداء بالأولين والاقتباس من المتقدمين ...» كأن الاول لم يترك للآخر شيئا .

ويبدو من هذه العبارات التى ذكرت فى المقدمة أن المؤلف يعتبر اللغة العربية مما ينبغى أخذه تعلما واللغة العربية هنا هى لغة الكتابة التى تبعد عن التشادق والغريب وترتفع عن الكلام العامى. فلم تعد

محاكاة البدو فى تشادقهم أمرا محمودا ولم يعد الاختلاط معهم وسيلة تعلم اللغة فالهمذانى يرى أن قراءة كتب تعليم اللغة هى الطريق الى استخدام العربية فى الكتابة وهاهو يقدم مجموعة من التعبيرات المختلفة فى كل موضوع فهو يذكر فى معنى صلح الشىء ماياتى : واذا صلح الفاسد قلت : استقام المائل وانشعب الصدع، وانجبر الوهن وانحسم الداء ، ارتتق الفتق واعتدل الميل ، واندمل الكلم . وعلى هذا النحو يذكر الهمذانى فى كل باب التعبيرات المختلفة وهو يصرح بأن اللغة السليمة هى التى تجرى (عند كتاب الرسائل والدواوين ومحافل الرؤساء المتخيرة من بطون الدفاتر ومصنفات العلماء) وهذا تعبير عن موقف جديد فاللغة العربية أصبحت لغة كتابة وأصبح تطويرها مرتبطا باستخدامها على المستوى الادارى والثقافى ولم تعد لغة بعض القبائل هى الفيصل فلم يذكر الهمذانى الاعراب الفصحاء كما كان لغويو القرن الثانى يذكرون فى فخر واعتزاز ،.

فقدت لغة البدو فى القرن الرابع الهجرى قيمتها كمثل أعلى للاستخدام اللغوى فابن جنى وهو لغوى عاش فى القرن الرابع الهجرى خصص فصلا فى كتابة الخصائص بعنوان « اغلاط الاعراب » وعقد فصل بهذا العنوان فى كتاب من كتب اللغة معناه أن نظرة القرن الرابع تختلف عن موقف اللغويين الاوائل فى القرن الثانى . فعندما اختلف الكسائى وسيبويه فى صحة العبارة فاذا هو هى أو فاذا هو اياها أى هل يعتبر الضمير الثانى فى حالة الرفع ام فى حالة النصب كان الفيصل بينهما البدو ورغم اختلاف الروايات فى هذه القصة الا انها تجمع على ان البدو كانوا الحكم فى هذه القضية وشتان بين هذا الموقف وبين موقف ابن جنى الذى يجعل نفسه حكما يفصل فى مدى الصحة اللغوية للغة البدو ويقضى بأن بعض ما عندهم لا يعتبر صحيحا فهو يرفض الفكرة القديمة التى كانت تعتبر البدو مصدرا لايرقى اليه الشك .

وهذا الموقف الجديد يرجع الى مجموعة من العوامل اهمها ان العربية فى القرن الرابع الهجرى كانت قد استقرت كلغة للثقافة

وهذا استدعى بالضرورة معجما متنوعا جديدا فلم تعد لغة البدو بمعجمها البدوى وأفقها الصحراوى كافية للتعبير عن الثقافة العربية الاسلامية الراقية ، لم يعد يمكن أن تكتفى لغة الثقافة بالمعجم البدوى فماذا يفعل الفيلسوف أو المنطقى أو عالم الرياضيات بمائة اسم للجمل أو مائتى اسم للاسد . ان اللغة العربية فى القرن الرابع الهجرى كانت قد استقرت كلغة للثقافة وأصبحت لغة كتابة تنمو على المستوى الثقافي فظهرت المصطلحات والتعبيرات المختلفة ولم يعد مثقفو القرن الرابع الهجرى يلوذون بالبادية بحثا عن الغريب بل كانوا يشتقون المصطلحات والتعبيرات المعبرة عن فكرهم وتخصصهم.

ولكن الشعر ظل داخل الضوابط اللغوية القديمة أو على الاقل حاول الشعراء أن يلزموا الخصائص اللغوية للشعر القديم كما قننها النحاة المبكرون واعتبر اللغويون ان أى خروج على الضوابط القديمة غير جائز فى لغة الشعر وحاول الشعراء دراسة النحو ومنهم من تعمق هذه الدراسة واظهر ذلك عن عمد وقصد في شعره . فالشعراء أو على الأقل من ابدعوا منهم بالعربية الفصحى آمنوا بأن اللغة القديمة أى اللغة التى سجلها النحاة هى المثل الأعلى فكل الصيغ التى جاءت عندهم صحيحة وجديرة بالاحتذاء ومنها صيغ نادرة جاءت في أبيات مفردة فقدت قصائدها وسجلها النحاة وهناك عدد لا بأس به من الصيغ اعترف الكوفيون وحدهم بصحتها ولم يعرفها أو يعترف بصحتها البصريون وهنا تظهر أهمية الثقافة اللغوية والاعداد النحوى للشاعر ، والمتنبى من أوضح الامثلة على هذا .

فقد حاول أن يظهر فى شعره براعته اللغوية وكأنه يستعرض المعجم القديم وهو يتفاصح بالنادر والغريب ويثير ثائرة النحاة ليثبت هو بالتالى صحة ما قال من الناحية اللغوية . فهو يستخدم مثلا صيغة الجمع آخاء كجمع لكلمة أخ لانه عرف ان هذه الكلمة استخدمت في بيت ما من الشعر القديم وهو يثير غضب أنصار المذهب البصرى ليثبت لهم بعد هذا أنه على صواب ويأتى بالشاهد على صحة تعبيره

وهو يبنى وزن فعال من الرقم ستة فيقول سداس متحديا بذلك ضوابط النحاة ، اذ أنهم اجازوا فعال من الاعداد من واحد الى اربعة ، ورفضوا قياس هذا الوزن من الأعداد الاخرى . والمتنبى يعلم أن بعض اللهجات القديمة استخدمت كلمة التوراب بدلا من كلمة التراب ولذا استخدم هذه الكلمة النادرة . ولهذا كله فقد اهتم به اللغويون ولا نعلم شاعرا عربيا فى عصر المتنبى أو بعد عصره آثار انتباه اللغويين مثله . فقد كثرت الشروح اللغوية على ديوان المتنبى ومن هذه الشروح شرح للعكبرى اسمه التبيان وهناك شروح مختلفة لأبى الفتح عثمان بن جنى أهمها الفسر بفتح الفاء وهناك شرح للمعرى وشرح للتبريزى .. الخ وهكذا اهتم المتنبى بالصيغ القديمة النادرة فأثار اللغويين واهتموا به .

وصلنا من القرن الرابع الهجرى كتابان هامان بالنسبة لتاريخ اللغة العربية الاول هو كتاب المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، وكتاب آخر هو صفة جريرة العرب للهمدانى ، المقدسى رحالة عربى جاب أنحاء مختلفة في العالم العربى وسجل ملاحظات لغوية هامة ولعل مايلفت النظر أن المقدسي يقول : ان اصح عربية انما توجد في المشرق ويعنى بالمشرق شرق الدولة الاسلامية في ايران والمناطق التى تليها ويعلل المقدسي هذا بأنهم يتعلمون العربية تعلما ولا يتأثرون في استخدامهم بالعربية بلهجات عربية سائدة وفي هذا دليل على ان العربية الفصحى كانت قد انفصلت فى ذهن مفكرى القرن الرابع انفصالا تاما عن لغة الحياة اليومية واصبح تطورها يمضي على المستوى الثقافي ويلاحظ المقدسي أن أحسن اللهجات في جزيرة العرب هى لهجة هذيل ولهجة نجد كما أنه مدح بعض لهجات الحجاز وهو يصدر فى هذا عن مقارنة العربية الفصحى بهذه اللهجات ويصف المقدسي لسان ساحل الخليج العربى بانه وحشى ويقول ان مدن الثغور العربية الواقعة على الخليج تعرف الفارسية معرفة جيدة ويذكر ان لهجة عدن تتميز بنطق الجيم كما لو كانت كافا وهذا معناه انهم كانوا

ينطقون الجيم على نحو يشبه نطق الجيم القاهرية فناطقو الجيم بالتعطيش يسمعون الجيم القاهرية كما لو كانت كافا ، ويتحدث المقدسى بعد هذا عن العربية فى العراق فيقول انها حسنة فاسدة ويعنى بالحسن حسن النطق وبالفساد الخروج على الضوابط الاعرابية ، ويقول ان اللحن عندهم شائع حتى عند قاضي القضاة . ويذكر ان أهل الذمة في مصر يعرفون القبطية ويصف اللهجات العربية فى مصر بالرخاوة ولهجات المغرب العربى بالصعوبة أما البربرية ولهجات الجنوب العربى ، فقال : انها لا تفهم ، والواقع أن هذه اللهجات امتداد للعربية الجنوبية القديمة وليست من العربية الشمالية التى عرفها المقدسي أما البربرية فلغة متميزة ، هذا ويستخدم المقدسي كثيرا من الالفاظ المحلية في حديثه عن كل أقليم من الاقاليم العربية فمثلا يذكر أن أهل سوريا يطلقون على الملاح كلمة نوتى بينما يستخدم أهل العراق كلمة ملاح ويقول المقدسى ان ما يسمى فى مصر فندقا يطلق عليه فى العراق وايران خان ويذكر أيضا ان اهل الشام يطلقون على السوق اسم قيصرية .

أما حديث المقدسى عن ايران وذكره للغات المختلفة التى استخدمت هناك آنذاك فيتلخص فيما يأتى : العربية هى لغة الكتابة والتأليف ولغة الحديث مع أصحاب السلطة الادارية ولغة الدين أما الفارسية فهى لغة الحديث داخل المنازل ويفهمها كل مقيم هناك فهمه للعربية أما البهلوية فلا يفهمها الا من تعلمها من الايرانيين ، ويهمنا هنا أن نلاحظ ان العربية كانت لغة الثقافة التى الفت بها الكتب فى أقصى المشرق وانها كانت لغة التعامل الرسمى .

اما كتاب الهمدانى ـ صفة جزيرة العرب ـ ففيه حديث عن لهجات جزيرة العرب وذكر الهمدانى على نحو من التفصيل بعض الملاحظات والاحكام عن اللهجات العربية البدوية . ومما يلاحظ انه وصف معظم هذه اللهجات بأنها سيئة ورديئة وهذا يتفق مع مالاحظناه في كلام ابن جنى وغيره من اللغويين عن لغة البدو في القرن الرابع .

الفصل الثامن

العلاقات اللغوية من القرن الخامس الهجرى الى فجر العصر الحديث

أهم ما يلاحظ تجاه هذه الفترة التى امتدت سبعة قرون أن العالم العربى كان واقعا فى قبضة عناصر غير عربية تشترك مع غالبية العرب فى اعتناقها الدين الاسلامى ورغم تغير الحكام فقد كانوا دائما من غير العرب . كانت الطبقات الحاكمة من عناصر فارسية أو تركية أو شركسية ويختلف توزيع هذه العناصر من اقليم لآخر ، فى كل هذه الفترة كانت العربية لغة الطقوس الدينية ولغة الفقه الاسلامى وهذا جعل دراسة العربية مرتبطة ارتباطا وثيقا بدراسة الدين فلم تكن العربية الا لغة الدين وهذا الأمر يشبه مركز العربية في ايران الحالية. فكل من أراد أن يشتغل بالدين كان عليه أن يدرس العربية .

وظهر فى هذا العصر عدد من الملخصات والشروح انتشرت انتشارا كبيرا في المشرق والمغرب وكان الهدف من هذه الملخصات تقريب ما توصل اليه الباحثون القدماء من نتائج في بحث اللغة العربية . كانت المعرفة بالعربية أداة لدراسة الدين وكل المعاهد العملية التى نشأت أو أخذت طابعها المميز فى تلك الفترة مثل الازهر والمعاهد المماثلة فى العالم العربى والبلدان الاسلامية ماتزال تعتبر دراسة العربية والدين أمرا واحدا ، وهذا الربط انما يرجع الى ظروف تاريخية ، فالعربية لم تكن الا لغة الدين عندما كان العالم العربى واقعا تحت

السيطرة الاسلامية غير العربية ، فلم تكن العربية لغة الادارة أو السياسة ، كانت الادارة بالفارسية فى أقصي المشرق الاسلامى وتركية فى المناطق الواقعة تحت النفوذ التركى .

بدأت هذه المرحلة بابعاد العربية عن الادارة عندما أعلن السلجوقيون فى القرن الخامس الهجرى اللغة الفارسية لغة رسمية لدولتهم التى ضمت القسم الشرقى من الدولة الاسلامية ، وفى ذلك العصر بدأ الايرانيون يؤلفون بالفارسية وبدأ بعضهم يهجر العربية ، وألف بعض المفكرين بالعربية والفارسية ، فالغزالى مثلا ألف كتابه : احياء علوم الدين ، بالعربية ، والف بالفارسية كتبا كثيرة منها : النثر المسبوك . ويلاحظ في المؤلفات الفارسية المبكرة أى فى القرن الخامس أنها اعتمدت اعتمادا كليا على المصطلحات العلمية العربية. فقد كان الايرانيون يستخدمون العربية في القرون الاربعة الاولى للهجرة كلغة للتعبير وللتأليف فكل ماكتبه الايرانيون في القرون السابقة كان بالعربية وكانوا يعتبرونها لغة التأليف وعندما حاولوا استخدام الفارسية اعتبروا العربية هى لغة الاساس واخذوا منها المصطلحات العلمية المختلفة . أما الافعال وادوات الربط اللغوى والالفاظ الأساسية البسيطة فكانت من اللغة الفارسية وهذا يشبه الكتابة العلمية الألمانية أو السويدية فمعظم المصطلحات لاتينية أو يونانية وادوات الربط والافعال والمفردات البسيطة من اللغة التى يفترض أن يكتب الانسان بها .

لقد تغير الموقف فى القرن الخامس الهجرى اذ دخلت اللغة الفارسية الى مجال التأليف مدعمة بدولة فارسية مسلمة رأت هذه الدولة أن تجعل من الفارسية لغة الادارة والسياسة ومن العربية لغة الدين . ولعل من الغريب أن أول المدارس العالية التى انشئت لتعليم العربية انما ظهرت في القرن الخامس الهجرى وهى المدرسة النظامية المنسوبة الى نظام الملك . فقد أسست سنة ٤٥٩ ، وبتأسيس هذه المدرسة نلاحظ تحولا فقد اهتم السلجوقيون

بالعربية الفصحى فى عصورها المبكرة لأن هذا يعين على فهم الدين ولكنهم اعتبروا الفارسية لغة الحياة . وهذا يشبه موقف الكنيسة الكاثوليكية في أوربا في استخدامها اللغة اللاتينية فى الطقوس الدينية . وقد درس فى المدرسة النظامية أبو زكريا التبريزى - نسبة الى تبريز - المتوفي سنة ٥٠٢هـ ومن أهم مؤلفاته شرح ديوان الحماسة ، ويلاحظ في مقدمات الكتب التى ألفها التبريزى وغيره انه يعتبر دراسة العربية وسيلة لفهم القرآن الكريم والسنة ونلاحظ عند المشتغلين بالعربية فى ذلك الوقت تدينا شديدا جعلهم يذكرون أن أشرف العلوم علم الكتاب والسنة وان مفتاح هذه الدراسة اللغة العربية .

ان الحديث عن العربية في العالم الاسلامى من القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر ذو شجون ، لقد كان معظم أجزاء العالم العربى تحت السيطرة العثمانية المباشرة أو غير المباشرة ، ومعنى هذا أن لغة الادارة العليا كانت دائما هى التركية وأن لغة الادارة المباشرة كانت التركية فى كثير من الاقاليم ، ولننظر الى ألقاب الوظائف الكبرى فى مصر فى تلك الفترة ، لقد كان الديوان الكبير وهو مجلس حكم البلاد يضم عن كل أوجاق موظفين ثلاثة :الأغا والدفتردار والروزنامجى والكلمات : اوجاق ، اغا ، دفتردار ، روزنامجى ليست عربية لم تدخل مصر الا مع الفتح العثمانى والأوجاق هو المنطقة والأغا قائد الحامية والدفتردار مدير المالية والروزنامجى حافظ السجلات.وكانت أهم وظائف الدولة فى يد العناصر غير العربية ، فالمماليك يتولون أهم الوظائف العسكرية والمدنية حتى ان شيخ البلد (= المحافظ) كان منهم وكان أعضاء الديوان والمماليك أصحاب الكلمة الاولى في البلاد ، فاذا أضفنا الى ذلك مركز القوة الرابع فى البلاد - بجانب الوالى والديوان والمماليك - وهو الحامية التركية والمتركة ، لتبينا أن كل مراكز القوة كانت فى يد غير العرب . كانت لغة الادارة المركزية فى الدولة العثمانية هى اللغة التركية ، وكان أصحاب المراكز العليا

فى الأقطار يستخدمون فى الادارة اللغة التركية أيضا ، أما العربية فكانت فى الادارة المباشرة المحدودة للغاية ، ودخلت طائفة من الالفاظ والتعبيرات التركية فى الاستخدام اللغوى المحدود للعربية فى الادارة المباشرة ، ولم يكن نظام الادارة البدائى يعطى مجالا لاستخدام لغة الادارة على نطاق واسع ، الا أن الذى رآه الشعب وعاشه أن الطبقات الحاكمة غير عربية ولكنها مسلمة وتستخدم لغة غير العربية فى حياتها اليومية والرسمية وتصلى وتقرأ القرآن بالعربية ، ولكنها تلك العربية الفصحى التى كانت اللهجات اليومية قد بعدت عنها بعدا سحيقا .

هذا ولم تغير الحملة الفرنسية شيئا فى العلاقات اللغوية والطبقية في مصر ، لقد ظل التوزيع الطبقى ـ اللغوى قائما ولم تتأثر العربية الا بالفاظ قليلة مثل Citoyen أى المواطن وقد كتبت الكلمة آنذاك سبوتيان ، وجاء عصر محمد على وهنا نلاحظ استمرار الوضع السائد للغة التركية وارتباطها بالطبقات الحاكمة وبالوظائف العسكرية ولنذكر هنا قول محمد على لأحد الاوربيين : « لا تنس ياصديقى أن الذين يفوزون فى المعارك انما هم الضباط لا الجنود وأن ضباط الجيش المصرى كلهم من الاتراك » ، ولم يقل محمد على هذا بالعربية التى كان يفهمها ولكن مظاهر العظمة كانت تفرض عليه ألا يتحدث الا بالتركية لغة السادة والطبقات الحاكمة ، كان اهتمام محمد على بالتركية والمتمصرين اهتماما كبيرا ، ولاسيما قبل صدامه مع الباب العالى ،لقد فتحت مدرسة القلعة في أوائل عصر محمد على لابناء المماليك حيث فرض عليهم تعلم القراءة والكتابة والقرآن واللغة التركية والفنون الحربية ، وهنا نلاحظ أن العربية ارتبطت بدراسة الدين والتركية بالسياسة والحياة العليا ، وتكرر هذا عندما أسست المدرسة التجهيزية وقد ضمت خمسمائة من المتمصرين ، تعلموا فيها علوما كثيرة باللغة التركية ، هذا وقد درست الفارسية والعربية كلغتين اضافيتين ، وقد اختير من خريجى التجهيزية كل تلاميذ مدرسة

المهندسخانة ، وعندما عاد أفراد البعثة التعليمية الاولى الى مصر كلف كل واحد منهم بنقل كتاب الى التركية ، ثم توترت علاقات محمد على بالباب العالى فهل قضي هذا على الوضع القديم ؟ لقد بدأ محمد على يحث على تعلم العربية بجانب العناية بالتركية ، ولكن الذى حدث هو أن انتشرت التركية مع انتشار التعليم من جانب وتشعب الادارة من جانب آخر . وعاشت مصر عصر ازدواج غريب في الثقافة والادارة والتعليم ،لقد صدر جرنال الخديوى وهى المهد المتواضع للوقائع المصرية سنة ١٨٢٢ بالتركية والعربية ، وعندما صدرت الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ م استخدمت اللغتين أيضا حتى سنة ١٨٦٠ م وعندما أسست مدرسة الادارة اهتم المدرسون باعداد موظفين ومترجمين يعملون بالتركية والعربية ، وقد لاحظ بعض الباحثين في المحفوظات الرسمية وجود أوراق كثيرة تحمل تعليقات بالعربية والتركية كل موظف يعلق وفق رغبته وقدرته .

لقد استمرت التركية لغة شائعة عند الطبقات العليا والدوائر الرسمية ، وكانت مادة أساسية في كل أنواع المدارس الجديدة حتى أن الانجليز لم يستطيعوا الغاءها من التعليم عقب دخولهم مصر فجعلوها أول الامر مادة اختيارية ثم جعلوا حصصها بعد هذا سنة ١٨٨٨ في الفسحة المدرسية لئلا يقبل عليها أحد . كانت العربية في المدارس الحديثة كلها تدرس مع الدين في سياق واحد فبعض المدارس كان يسمى هذه المادة الواحدة « نحو وصرف ومطالعة وتوحيد وواجبات العبادة والأدب » .

ظل الأزهر خلال الحكم العثمانى مصباحا عربيا ينير الطريق في ظلمات حالكة ، ولكن بتأسيس المدارس الحديثة التى أمر بها محمد على لتخريج موظفين ولتطوير البـلاد وتكوين الجيش فقد الأزهر مكانته الرائدة ، وأصبح رجال الأزهر لا يمثلون المستقبل بقدر مامثلوا ارتباط الجماهير بالدين . لم يكن مجال العمل في أجهزة الدولة بحاجة الى ماعند الأزهر من شروح وملخصات ، ولذا فلم تكن لرجاله وظائف

مرموقة فى جهاز الدولة ، وكان معظم الطبقة الصاعدة مع الاحتكاك بالحياة الاوربية من المثقفين ثقافة حديثة ، وظل الأزهر في عروبته رمزا للكفاح الشعبى من أجل البقاء ، ولكنه كان كفاح الجماهير العربية العريضة الفقيرة .

وهكذا ارتبطت اللغة العربيه طوال هذه الفترة بالطبقات غير الحاكمة فى المجتمع فالمتحدثون بالعربية كانوا يمثلون الطبقات المحكومة وكانت العناصر الحاكمة من اصول غير عربية وكانت العناصر العسكرية المسيطرة من اصول غير عربية أيضا . كانت الطبقات الارستقراطية ذات النفوذ من غير العرب فالمماليك الذين حكموا وقتا طويلا انما جلبوا من مناطق مختلفة فى وسط آسيا وبعد دخول العثمانين كانت الطبقات غير العربية فى المجتمع تحتفظ لنفسها بكل الوظائف الراقية التى كانت وقفا على المتحدثين بالتركية .

وهكذا ارتبطت دراسة العربية الفصحى فى الوجدان الشعبى بدراسة الدين واصبح رجل الدين والمتخصص فى العربية شخصا واحدا هدفه الدين ووسيلته العربية ، وأصبح الحديث باللهجات العربية واستخدام هذه اللهجات للابداع الفنى دليلا على الضعة الاجتماعية وكانت التركية لغة السياسة والادارة والطبقات الحاكمة فى المجتمع .

الفصل التاسع

(تطور البنية اللغوية)

عندما كتب سيبويه فى القرن الثانى الهجرى كتابه العمدة فى النحو ، لاحظ اللغوى العظيم أن صوت الضاد من الاصوات الصعبة التى لا يسهل نطقها على غير البدو ، وتحدث عن نطق آخر لها اطلق عليه «الضاد الضعيفة» ، ولسنا نريد هنا أن نفصل القول فى كيفية النطق القديم للضاد البدوية فهذا لا يزال موضع خلاف بين الباحثين ، ولكن الضاد الضعيفة على كل حال ثمرة أثر من آثار الاساس اللغوى ، فاللغات التى سبقت العربية فى الشام والعراق ومصر والمغرب لم تكن تعرف الضاد ، كانت العراق حيث عاش سيبويه ملتقى لأخلاط من القوم يتحدث معظمهم باللهجات الآرامية وهذه لا تعرف صوتا اسمه الضاد. ولذا فقد نتج عن محاولتهم الناقصة النطق بالضاد ذلك الصوت الذى يطلق عليه سيبويه اسم الضاد الضعيفة .

وربما يتصور البعض فى مصر أو فى العراق أن هذه الضاد التى تنطق اليوم هى الضاد التى كان ينطقها امرؤ القيس أو زهير قبل الاسلام أو كعب بن زهير فى صدر الاسلام أو الخليل بن احمد فى القرن الثانى للهجرة ، وهذا غير صحيح ، فالنطق العراقى الحالى للضاد يخلطها مع الظاء خلطا يجعل التلاميذ يخلطون فى الكتابة بين هذه وتلك ، وهذه الظاهرة ليست وليدة الساعة بل بزغت مع استقرار العربية فى العراق

وهناك عدد كبير من الرسائل ألفت في العراق يحاول مؤلفوها فيها التمييز بين الكلمات ذات الضاد والأخرى ذات الظاء ولولا الخلط لما كانت هناك ضرورة لتأليف هذه الرسائل .

لقد التقت الضاد والظاء فى العراق فى نطق واحد هو النطق الذى يسمعه أبناء مصر ظاءا ، اما فى مصر فهناك تطور مواز ، فقد التقت الضاد والظاء فى نطق واحد فنحن نقول اليوم كلمة ظل في العامية كما لو كانت بالضاد ، ولسنا نريد الآن تحديد زمن هذا الخلط ، وقصارى محاولتنا هنا أن نبين أن هـذا النطق الذى يتصوره بعض ابناء مصر نطقا قديما للضاد ليس كذلك فهذا النطق الحديث يجعل من الضـاد صوتا مطبقا والضاد هى المقابل المطبق للدال وهنا وجه الخلاف بين القديم والحديث ، فالاطباق في اصطلاح علماء الاصوات العرب القدامى والمعاصرين نوع من التقاء أعلى اللسان بأعلى الحلق ، ولو طبقنا الفهم العلمى الدقيق لنصوص سيبويه على البحث الصوتى لخرجنا من هـذا أن النطق القديم للطاء (ط) هو ماينطبق تماما على النطق الحالى للضاد فى مصر ، فالضاد فى مصر تنطق مثل الدال الملهم الا ان الضاد مطبقة والدال غير مطبقة ، وقديما قال سيبويه « ولولا الاطباق لصارت الطاء دالا » ، لقد حدث اذن تطور فى عدد من الأصـوات ، لقـد صعبت الضاد فتحولت الى نطق جديد وتغير نطق الطاء .

وهناك قضية يثيرها كثير من الباحثين حول نطق القاف ، وقـد وصف سيبويه نطق هذا الصوت وصفا يجعله من الاصوات التى تهز الاحبال الصوتية اهتزازا شديدا عند النطق بها ، ويطلق على هـذا النوع من الاصوات اسم الاصوات المجهورة ولكن النطق الحالى لهذا الصوت فى قراءتنا للعربية الفصحى لا يجعل الصـوت مجهورا أى ان الأحبال الصوتية لا تهتز اهتزازا يذكر عند النطق بالقاف فى نطقها التقليدى على مستوى الفصحى ، فكيف نتج الاختلاف ؟ هل تطورت

القاف من صوت مجهور الى صوت غير مجهور ؟ وكيف كانت القاف القديمة ؟ يرى بعض اللغويين أن هذه القاف القديمة هى القاف البدوية أعنى الجاف البدوية وليعد القارىء الكريم بسمعه الى البدو وأحدهم يقول « هو جال لى وانا جلت له » ، ان هذه الجاف مجهورة فعلا وقد تكون هى القاف التى عرفها سيبويه . ويرفض بعض الباحثين هذا التفسير قائلين ان القاف القديمة تشبه الغين الحالية أى تشبه الغين التى تنطق اليوم فى السودان ، فالقاف عندهم تشبه الغين ويروى من عاش فى السودان ان حزبا من الاحزاب نظم هناك مظاهرة تهتف مطالبة بالاستغلال ، والواقع انهم كانوا يعنون بهذا المنطق ما يكتبونه « الاستقلال » . فالقاف السودانية تصل الأذن غير السودانية كما لو كانت غينا ، ليست هى الغين تماما ولكنها شبيهة بها • ويرى بعض الباحثين أن هذا الصوت هو الوريث الحقيقى للقاف القديمة ، ان ظواهر التطور الصوتى كثيرة وحسبنا مع ضيق المكان ما ذكرناه .

اما التطور فى الكلمات فأبعد مدى واكثر وضوحا ، ان وزن فاعل ووزن مفعول والأوزان الاخرى هى هى لم يكد يطرأ عليها تغيير فى البنية ، ولكن التغير في هذه الاوزان يكمن في بناء كلمات جديدة لم يكن يعرفها المجتمع البدوى البسيط . ولننظر نظرة بسيطة الى مادة جمع فى لسان العرب مقارنين اياها بنفس المادة فى معجم دوزى ، والمعروف أن كل المادة التى فى لسان العرب المؤلف فى القرن السابع الهجرى قد أخذت من معاجم سبق تأليفها في مراحل سابقة وهذه أخذت بدورها ما بها من الرسائل اللغوية التى اثمرت عنها حركة جمع اللغة فى البادية فى اواخر القرن الاول وعلى امتداد القرن الثانى وأوائل القرن الثالث، والاستثناء الوحيد هنا هو ما اخذه صاحب لسان العرب من معجم تهذيب اللغة للأزهرى ، فقد سجل الأزهرى بنفسه فى القرن الرابع الهجرى مادة لغوية فى البادية ، ان مادة اللسان اذن مادة بدوية وجلها

يرجع الى القرن الثانى الهجرى ، فماذا تفعل الحضارة العربية الاسلامية والعلوم الناشئة والمجتمع الحضرى فى العراق والشام ومصر والمغرب والاندلس بهذا المعجم البدوى الذى يعرف للجمل أكثر من مائة اسم ، وماذا يفعل المفكر الاندلسى بمائة اسم للأسد ؟

لقد نشأت كلمات جديدة مع الضرورات الحضارية الجديدة ولولا هذه التجديدات لما عرفنا الحضارة العربية الاسلامية فى أبعادها المأثورة . وعندما حاول المستشرقون الاوربيون قراءة التراث العربى الاسلامى لم يسعفهم لسان العرب فى الفهم الدقيق للكلمات وطال تفكيرهم ، وحاولوا بالمقارنة فهم السياق ، حتى عرفوا المقصود معرفة تصيب احيانا وتجافى الصواب احيانا . وهنا ظهرت الحاجة الى تأليف معجم مكمل للمعاجم العربية وقام المستشرق دوزى بعمل هذا المعجم . ومن الطريف هنا أن نقارن مادة من المواد فى اللسان كمثل للغة البادية بما جمعه دوزى كنموذج للكلمات التى استخدمت فى عصر الحضارة العربية الاسلامية ، وكى نكمل الصورة لننظر فى المعجم القيم الذى ألفه عالم هندى جليل فى القرن الثالث عشر الهجرى هو التهانوى وهذا المعجم هو كشاف اصطلاحات الفنون .

لقد امدت اللغة البدوية مجتمع الحضارة الاسلامية بالمواد اللغوية المختلفة ونعنى بالمواد هنا الحروف الاصول ، وأمدت أيضا بعدد من القوالب أو الاوزان ، ولكنها لم تكن بحاجة الى استخدام جميع الاوزان من كل كلمة ، فمثلا وزن انفعل من المادة جمع أى : انجمع ، لم يرد فى لسان العرب ولكنه استخدم فى الاندلس الاسلامية . يقول المقرى : « انجمعت عن على النفوس» ووجدته فى الجبرتى بمعنى تخلى - ترك - تقاعد - لم يعد يمارس العمل . أما الأوزان أفعال وافعوعل أو افعنلل أو افعنلى وغيرها من الاوزان النادرة فلم ترد أيضا من هذه المادة جمع ، ولكن القضية ليست فقط قضية وجود الكلمة ، فالكلمة كرمز صوتى

لا قيمة لها دون استخدام ، والمعنى هو العنصر الثانى بعد وجود الرمز ، بل ان الرمز الاقوى لا يكون رمزا اذا كان له معنى ، وسنحاول فيما يأتى تتبع تطور بعض الالفاظ التى تدخل فى مادة جمع .

لقد عرف لسان العرب كلمة « جمع » على انها نتيجة ضم شىء الى شىء أو انها مرادف لكلمة جماعة من الناس والجمع ايضا هم القوم المجتمعون والجمع فوق هذا وذاك الاشتات من التمر . ولكن العلوم العربية الاسلامية استخدمت كلمة الجمع كاصطلاح ، وكل علم عرف لهذا الاصطلاح معناه، يوضح هذا لنا كتاب التهانوى كشاف اصطلاحات الفنون ، فالجمع عند المحاسبين هو زيادة عدد الى عدد آخر ، أى أننا اذا اضفنا ٥+٦=١١ لكان هذا جمعا . ولو أضفنا ٥+٥ = ١٠ لكان هذا عنده تضعيفا . ويذكر التهانوى أيضا الجمع عند علماء اصول الفقه وهؤلاء هم المهتمون بالقضايا المنهجية للفقه الاسلامى ، فالجمع عندهم « أن يجمع بين الاصل والفرع لعلة مشتركة بينهما ليصح القياس » . واما الجمع عند النحويين فله معانيه وصوره المختلفه ونفس المصطلح نجده أيضا عند البديعيين والصوفيين والمنطقيين وغيرهم من أصحاب العلوم . وهكذا استخدمت الكلمة القديمة : جمع استخداما اصطلاحيا متنوعا .

ولنقف قليلا عند كلمة « الجامعة » فهذه الكلمة استخدمت كما يخبرنا لسان العرب كاسم وكصفة مؤنثة واستخدامها كصفة مثل قولهم ((سورة جامعة)) أى جمعت فيها أشياء كثيرة واستخدمت كأسم أيضا فالجامعة الغل أو القيدوشتان بين هذا الاستخدام والاستخدام الحديث ، نحن نعرف الجامعة اليوم كتيار سياسى هو الجامعة الاسلامية وكمنظمة دولية هى الجامعة العربية وكمعهد اكاديمى مثل جامعة القاهرة وكمعهد علمى غير اكاديمى مثل الجامعة الشعبية .

اما كلمة « جماعة » فيبدو أن استخدامها كثر وشاع فى الاندلس والمغرب ، أن لسان العرب يعرف الكلمة ، فالجماعة عنده الجمع من الناس أو الشجر أو النبات ، ولكن اذا نظرنا فى معجم دوزى لاحظنا أن معظم امثلته حول كلمة جماعة مأخوذة فى مؤلفات الاندلسيين والمغاربة ، يذكر دوزى فى استخدام الكلمة : ((مذهب السنة والجماعة))، ((أهل السنة والجماعة » « جماعة المسلمين » ((امر الجماعة » « افترق أمر الجماعة » . « المستمسكون بالجماعة » .. الخ وواضح أن كلمة الجماعة تعنى هنا الصف الاسلامى (الموحد) . وكل هذا نقله دوزى عن المقرى وابن خلدون وابى حيان وغيرهم من المغاربة . ولنفكر قليلا فى استخدامنا العامى لكلمة جماعة كناية عن الزوجة .. لنلاحظ تطورا فى الكلمة .

وهناك عدد من الالفاظ لم تعرفها اللغة العربية حتى القرن الثانى اذا سلمنا ان لسان العرب قد قدم لنا صورة امينة لها ، فكلمة «جمعية» لم يعرفها اللسان ونجدها لأول مرة فى معجم دوزى وهو يذكر تحتها « جمعية أهل البلد » ولكننا نستخدم الكلمة اليوم استخداما اصطلاحيا شائعا فنتحدث عن الجمعية العمومية لاحدى الشركات المساهمة وعن الجمعية العامة للامم المتحدة كمجموع الاعضاء المساهمين أو المشتركين وعن جمعية الاسعاف كمنظمة خيرية وعن الجمعية التشريعية كمجلس نيابى وعن الجمعية التعاونية وكذلك عن الجمعية الاستهلاكية . وهكذا ظهرت الكلمة واستخدمت وشاعت .

وشبيه بهذا القول فى كلمة « اجتماع » فهذه الكلمة لم يعرفها اللسان وذكرها دوزى عن أبى الفداء بمعنى اللقاء ثم أفرد لها التهانوى فى ((كشاف اصطلاحات الفنون)) عرضا مسهبا وتحدث عن مفهوم ((الاجتماع)) عند المنجمين وعند علماء الكلام وكذلك عند النحاة فلكل علم مصطلحه .. واذا قلنا اليوم كلمة الاجتماع تبادر الى الذهن

اجتماع مجموعة من الناس فى مكان ما أو اجتماعهم على شىء وربما تذكر البعض علم الاجتماع هذا العلم الجديد الذى استعان بالكلمة القديمة ليسمى نفسه فى العربية وربما خطر فى ذهن أحد القراء وزارة الشئون الاجتماعية فكلمة اجتماعية من اجتماعى والأخيرة من اجتماع ، وربما تذكرنا المساواة الاجتماعية أو العلاقة الاجتماعية كل هذا من الكلمة التى لم تكن تعرفها لغة البدو حتى القرن الثانى ، وهل كان لمجتمع البداوة أن يعرف العلاوة الاجتماعية أو علم الاجتماع أو اجتماع الساكنين عند النحاة .

ولعل من غير المتصور أن يتحدث اليوم مثقف عربى دون أن يستخدم كلمة « مجتمع » ، ولكن هذه الكلمة لم يعرفها اللسان واقدم استخدام نعرفه لها هو ما سجله دوزى نقلا عن الجغرافى الصقلى المشهور الادريسى، ويبدو أن الادريسى أول من عرف هذه الكلمة التى اصبحت فى العصر الحديث مصطلحا هاما ؟ وشبيه بهذه كلمة ((مجمع)) ، نتحدث اليوم عن المجمع العلمى والمجمع اللغوى فهل عرفت لغة البادية هذه الكلمة، نعم لقد عرفتها ولكن بمعنى الجمع من الناس ونقطة الالتقاء وموضع الاجتماع وهذه المعانى القديمة أصل للاستخدام الحديث .

وفوق هذا وذاك فنحن نعرف اليوم كلمة « المجموع » كاسم قائم برأسه وكذلك كلمة « المجموعة » كاسم آخر ، ولكن الكلمة عرفت قديما فالمجموع فى اللسان ما جمع من ههنا وهناك وان لم يجعل كالشىء الواحد ، ولكن كلمة المجموعة لم تعرف قديما كاسم قائم بذاته بل كصفة ولنقرأ أمثلة دوزى : قرية مجموعة عامرة بليدة مجموعة أى زاخرة بالسكان ، ولكن الكلمة تحولت اليوم فى الاستخدام الحديث الى اسم قائم بذاته .

وأخيرا نذكر كلمة ((تجمع)) هذه الكلمة الشائعة في الاستخدام

المعاصر والتى لم تعرفها المعاجم القديمة ولا محاولات استكمالها وكأن هذه الكلمة صياغة جديدة لمادة قديمة فى شكل قديم . وهكذا نلاحظ أن المادة ج م ع قديمة فى العربية والاوزان المختلفة مدونة فى النصوص العربية القديمة ، ولكن الاستخدام اللغوى القديم لم يكن بحاجة الى صياغة كل الاوزان والمشتقات من هذه المادة . فالتطور الذى حدث يكمن فى صياغة كلمة جديدة من وزن معروف ومادة معروفة ، وهكذا تظهر من العنصرين كلمة جديدة ، ويظهر التطور ايضا فى استخدام الكلمة القديمة لتؤدى دلالة جديدة أرادت العلوم أو الحضارة التعبير عنها فوجدت فى الكلمة القديمة امكانية طيعة طورتها بالاستعمال فى المعنى الجديد فاكتسبته . واصبحنا لا نعرفها الا فى الاستخدام الجديد .

وفوق هذا وذاك فهناك ظواهر كثيرة نلاحظها فى بناء الجملة العربية الحديثة ، ولا تكاد تبدو شائعة في الضوابط التى استخرجها النحاة من لغة القرون الاولى . فالجملة العربية الحديثة كما نعرفها فى الكتابات والمؤلفات والصحافة تعرف تراكم المصادر على نحو لم يعرف قديما بنفس القدر من الانتشار ، نقرأ اليوم عن احتمال قيام انقلاب فى بلد ما ، والكلمات احتمال وقيام وانقلاب كلها مصادر اضيف سابقها الى لاحقها ، ونسمع من الاذاعة على لسان احد رجال الامم المتحدة : استحالة منع نشوب حرب بين مصر واسرائيل ، والكلمات استحالة ومنع ونشوب وحرب كلها مصادر أضيف سابقها الى لاحقها على نحو لم تكن تعرفه اللغة القديمة على هذا النحو التراكمى . هذا وينبغى أن نذكر فى هذا الصدد أن دراسات النحاة العرب للغة انما قامت على أساس لهجات بعض القبائل ولغة الشعر العربى فى القرن الثانى للهجرة ، ولم تضع هذه الدراسات نصوص النقد العربى الذى ازدهر بعد هذا فى بؤرة التحليل اللغوى ، ولذا فمن الصعب الاعتماد على كتب النحاة القدماء لنتعرف على طبيعة الاساليب التى عرفها النثر العربى الاسلامى ، ونحن الآن نلاحظ بعض الظواهر الموجودة في النثر فنلاحظ الشائع

الجديد في النثر ولا نراه في تلك المؤلفات التى قامت أساسا على دراسة لغة الشعر فأحكامنا هذه تظل نسبية الى ان يوضح البحث نسبة شيوع هذه الظواهر فى الشعر والنثر على نحو تاريخى ، وهذا هو ما يصبو اليه النحو التاريخى للغة العربية .

يعرف النثر العربى الحديث اتجاها الى فك حالة الاضافة باستخدام حرف جر ، وهذه الظاهرة شائعة نمارسها ونفهمها ليل نهار ، فنحن نتحدث عن صورة من الصور ونقول : هذا منظر عام للواجهة الامامية لجامعة القاهرة ، تفصيلا للعبارة الموجزة منظر واجهة جامعة القاهرة ولنقارن الجملتين : ففى الثانية كلمة منظر مضافة الى واجهة ، وكلمة واجهة مضافة الى جامعة . ولكن الجملة الاولى عرفت فك حالة الاضافة مستخدمة بين المضاف والمضاف اليه حرف جر هو اللام ، فبدلا من منظر واجهة نقول منظر لواجهة ، وبدلا من واجهة الجامعة نقول « الواجهة .. لجامعة .. » ولكن ينبغى أن نلاحظ هنا أيضا أن المضاف السابق فى كل هذه الحالات قد وصف ثم جاءت اللام والمضاف اليه السابق بعد ذلك . وعلى هذا فنحن نتحدث عن منظر عام ـ للواجهة الخلفية ـ لجامعة القاهرة . وكذلك عن المدير العام لادارة البعثات وعن المفوض العام لشركة السيارات أو عن المراسل الخاص للأهرام أو الأمين العام لجامعة الدول العربية . وفى كل هذه الحالات وصف المضاف السابق وفكت حالة الاضافة باللام .

واذا نظرنا الى مزيد من الامثلة الخاصة بفك حالة الاضافة باللام وجدنا أن المضاف السابق يكون فى كثير من الاحيان فى حالة اضافة جديدة ، نقول : منظمة الامم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة والتعبير البسيط منظمة التربية و .. قد فك ، ودخلت اللام على المضاف اليه فى الحالة البسيطة وهو كلمة التربية ولكن وسع التعبير بمضاف اليه جديد مضاف الى المضاف الاول فتحدثنا عن منظمة الامم .. ل .. وعن

وزير الدولة ل .. وعن سوء استعمال الحمقى ل ... وعن أول اجتماع ل .. استلام الدولة ل .. وهكذا نلاحظ أن ظاهرة فك حالة الاضافة باستخدام اللام بين المضاف القديم والمضاف اليه القديم ارتبطت بتخصيص المضاف القديم اما بالصفة أو بمضاف اليه جديد ، ونجد هذا مثلا في الجملة الآتية :

الاجراء الأول لاستلام الدولة لجميع اموال وممتلكات الشركة العالمية لقناة السويس للملاحة البحرية ، ولوحاولنا استخدام طريقة تراكم المصادر لأمكن هذا بحذف الكلمات المخصصة التى وضعنا تحتها خطا ، ولقلنا اجراء استلام جميع اموال وممتلكات شركة قناة الملاحة ، وهنا نلاحظ تراكم عدد من المصادر والاسماء ، السابق منها مضاف الى اللاحق .

هذا وفك حالة الاضافة نلاحظه أيضا باسخدام حرف الجر : الباء ، فنحن نقرأ عن قرار بتأميم الشركة أو تفويض بعقد الاتفاقيةأو امر بانشاء أو مشروع بتخويل رئيس الدولة .. وهذه الظاهرة شائعة فى النثر العربى الحديث . ولا يكاد يعرفها الاستخدام القديم وعلى كل حال فظاهرة فك حالة الاضافة فى النثر العربى الحديث موازية لفك حالة الاضافة فى العبرية الحديثة وفى اللهجات العربية الحديثة ، ففى العبرية القديمة يكون المضاف والمضاف اليه تركيبا واضح المعالم مثل (سيفر يوسيف) أى سفر يوسف ولكن الحديثة تقول (هسيفر شل يوسيف) اى الكتاب الذى ليوسف ، ولو كنا أكثر دقة لترجمنا العبارة الى العامية المصرية قائلين : الكتاب بتاع يوسف ، فحالة الاضافة فكت هنا وهناك فى العبرية باستخدام (شل) كأداة للربط بين المضاف والمضاف اليه السابقين ، وفي اللهجات العربية الحديثة باستخدام كلمة (بتاع) أو (متاع) ، فظاهرة فك حالة الاضافة موجودة اذن فى مستويات لغوية

حديثة مختلفة وكل مستوى يستخدم للفك اداته الخاصة به ولم تعد الظاهرة امرا نادرا أو خاصا بضرورة الشعر كما سجل النحاة القدماء.

وفوق هذا وذاك فقد طورت العربية الفصحى فى استخدامها الحديث عدة وسائل للتعبير عما يعبر عنه فى علم اللغة بالتنكير ، ومعروف أن العربية تعرف عدة أنواع من المعارف وكان التنوين وما يزال يؤدى فيها وظيفة علامة للتنكير . ولكن الاستخدام الحديث يعرف أيضا استخدام كلمة (أحد) والمؤنث (احدى) مضافة الى ما بعدها للتعبير عن التنكير. نجد هذا فى العبارات الآتية : أحد الامريكيين - أحد البيوت - أحد رجال البوليس - أحد كبار الضباط - أحدى السفن الحربية - احدى المدارس - احدى الصحف العراقية - احدى المقومات الاساسية ، فكلمة أحد أو احدى أضيفت الى صيغة الجمع التالية ، والتركيب كله معناه معنى المفرد النكرة . وشبيه بهذا أيضا استخدام كلمة (ما) بعد المفرد للتعبير عن كونه نكرة ، وهذا التعبير له جذوره في القرآن الكريم : (مثلا ما) ، ونجده شائعا فى النثر العربى الحديث مثل : شىء ما ، وقت ما ، يوم ما ، اصطلاح ما ، تأليف ما ، ... الخ ، وهكذا عرفت اللغة العربية في العصر الحديث للتنكير تعبيرات مختلفة بأدوات طورتها لذلك وأخذتها لهذا من اللغة المتوارثة .

الفصل العشر

نمو المفردات فى العربية

ان نظرة الى جملة واحدة بسيطة فى حديثنا اليومى أو أحد الكتب الحديثة أو القديمة لتعطينا كلمات لها تاريخ ، ولكل كلمة فى كل لغة تاريخ ، فالكلمة تحيا وتستخدم وتتغير وتموت .. والعربية تعرف كلمات ترجع الى اللغة السامية الأم وهذه ترجع الى ما قبل منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وهناك كلمات لاتعرفها من اللغات السامية الا العربية ، عرفتها بعد أن هاجرت الجماعات السامية الاخرى من عهد الساميين ، وهناك طائفة من المصطلحات استخدمت مع العلوم الاسلامية ، وفوق هذا وذاك فهناك طائفة من الالفاظ الاجنبية تعربت تعربا كاملا ولم نعد نحس اليوم أنها أجنبية بجانب طائفة مازال عجمتها واضحة أمامنا ، أن مستخدم اللغة لايهتم بتاريخ الكلمة أو بعمرها وكل مايهمه هو أن يستطيع استخدامها ، فالمتحدث ساعة استخدامه للغة لاينظر الى حياة كل كلمة بل يستعمل الرمز اللغوى لنقل الفكرة أو الانفعال الى المتلقى أو للتنفيس عن عاطفة أو شعور . ان ماضى الكلمة وتاريخ اللغة أمر علمى يهتم به الباحثون ، ولاغرابة فالانسان يحتاج اللغة كما يحتاج هواء للتنفس ، ولكن معرفة طبيعة عملية التنفس وطبيعة مكونات الهواء أمران علميان يهمان الباحث كموضوع للبحث ، ولايهتم الانسان العادى الا بالممارسة العملية للغه وللتنفس ، فدراسة حياة كل كلمة عمل علمى .

ولننظر فى كتاب الفهرست لابن النديم الى العنوان البسيط التالى : أسماء النقلة من اللغات الى اللسان العربى . لكل اسم من كلمات هذا العنوان فى تاريخ اللغة قصة ، فكلمة اسم كلمة سامية قديمة نجدها في صورة أو أخرى في كل اللغات السامية ، نجدها فى النقوش الاكادية المؤرخة فى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ، فهذه الكلمة يزيد عمرها اذن عن خمسة وأربعين قرنا ، وقد بحثت الكلمة في ضوء المنهج المقارن.ويرى معظم الباحثين أنها من أصل ثنائى هو السين والميم أو الشين والميم ثم تطورت بعد هذا في اتجاه الثلاثى، والالف التى نراها فى الخط العربى فى هذه الكلمة هى ألف وصل تسقط فى النطق بكلمة فى السياق . والصيغة التى أمامنا من الكلمة هى صيغة جمع التكسير ، وجمع التكسير ظاهرة خاصة بالمجموعة الجنوبية من اللغات السامية ، أى أنه يوجد فى الحبشية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية ولايوجد فى اللغات السامية القديمة فى العراق والشام .

والكلمة الثانية فى هذه العبارة هى كلمة : نقلة ، وهى من المادة العربية نقل ، وهذه تفيد النقل المادى أى نقل شيء من مكان الى آخر ، وتطور المعنى هنا الى النقل المعنوى ونقل الفكرة من لغة لأخرى. وهنا نؤرخ ان استخدام كلمة ناقل - نقلة بمعنى مترجم - مترجمين قد عرف فى القرن الرابع الهجرى عندما ألف كتاب الفهرست لابن النديم ، والواقع أن دراسة تاريخ اللغة لاتتحقق الا بدراسة النصوص وتحليلها وتصنيفها ثم تتبع الظاهرة صوتية كانت أو صرفية أو نحوية أو دلالية تتبعا تاريخيا لنعلم على نحو دقيق زمن ظهور الكلمة ومكان ظهورها وتطور دلالتها على مر التاريخ .

يذكر ابن النديم فى هذا العنوان كلمة اللغات وكلمة اللسان ، ولابد أن نقف قليلا عند الكلمتين ، فالكلمة الثانية : اللسان . كلمة قديمة قدم أقدم اللغات السامية ، هى من المعجم الاساسى المشترك فى اللغات السامية حملتها الهجرة الاكادية معها فهى أقدم من منتصف

الالف الثالث قبل الميلاد ، لو نظرنا الى الكلمة فى اللغات السامية الاخرى وجدناها فى العبرية (لاشون) وفى الآرامية (لشانا) ، والكلمات الثلاث لسان - لاشون - لشانا كلمة واحدة من الناحية الاشتقاقية، فالسين فى العربية يقابلها شين فى العبرية والآرامية وهذا قانون صوتى والقوانين الصوتية مطردة لاتعرف الشذوذ ، والحركة التى بعد السين فى العربية هى فتحة طويلة وفى العبرية نجد بعد الشين ضمة طويلة ، والواقع أن الفتحة الطويلة فى العربية يقابلها دائما ضمة طويلة فى اللغات الكنعانية ، والعبرية احدى اللغات الكنعانية ، وهذا أيضا قانون صوتى مطرد ، واذا نظرنا بعد هذا الى الكلمة الآرامية (لشانا) لاحظنا أنها بفتحة طويلة ، وقد كانت هذه أداة التعريف فى الآرامية فالجماعات السامية الاولى لم تكن تعرف أداة التعريف ، فطورت العربية لنفسها أداة هى أل تدخل في أول الكلمة وطورت الآرامية لنفسها فتحة طويلة تلحق بآخر الاسم لتفيد التعريف . الكلمات « لسان ، لاشون ، لشانا » كلمة واحدة اشتقاقيا وتفيد كل واحدة اللسان بالمعنى المادى كجزء من الفم والمعنى المعنوى فقد تحدثوا عن اللسان العربى أو اللسان الآرامى أو اللسان العبرى .

لقد استمر استخدام كلمة اللسان بالمعنى المعنوى قرونا طويلة، وعندما تأسست فى القرن الماضى مدرسة للغات والترجمة أطلق عليها اسم « مدرسة الألسن» ، وكان ناظر هذه المدرسة رفاعة رافع الطهطاوى يستخدم فى كتبه كلمة لسان مثلما نستخدم اليوم كلمة لغة فهو يتحدث عن اللسان العربى واللسان الفرنساوى واللسان اللاطينى.. ونحن نتحدث اليوم عن الانجليزى والالمانى والعربى والايطالى ، وهذا التعبير ظهر أولا كصفة وموصوف نجده فى القرآن الكريم : (بلسان عربى مبين) ونجده عند ابن النديم فى القرن الرابع الهجرى : «اللسان العربى - اللسان السريانى ، اللسان اليونانى ، وعند ابن النديم نجد أيضا حذف الموصوف والاكتفاء بالصفة عندما يقول : بالعربى - بالسريانى - باليونانى أو الى العربى أو الى السريانى أو الى

اليونانى ، ومن هنا استقر التعبير الشائع عندنا والذى كان صفة لا لمؤنث بل لمذكر هو اللسان .

اما كلمة لغة فترجع الى أصل غير سامى انها من الكلمة اليونانية Logos ومعناها كلمة ـ عبارة ـ دراسة . وقد دخلت الكلمة العربية فى وقت مبكر ، ـ فاللغويون العرب جامعو اللغة فى القرن الثانى للهجرة تحدثوا عن لغات القبائل وكثيرا ماوصفت الصيغة اللغوية التى اعتبروها ثانوية أو جانبية بأنها «لغة» وقالوا مثلا ان كلمة شهد أو كبر فيها أربع لغات شهد شهد ، شهد شهد وكذلك كبر ، فاللغات هنا هى الصيغ أو الاشكال الفرعية ولكنهم تحدثوا أيضا عن اللغة بالمعنى الاصطلاحى الذى نعرفه اليوم لكلمة كلام ، قالوا : لغته فاسدة أو لغته جيدة .. ان الحديث عن تاريخ حياة أى كلمة تاريخ طويل فالكلمة تعيش وتتفاعل والمعنى هو حصيلة الملابسات التى عاشتها الكلمة .

ان العربية لغة ذات قدرة بارعة فى هضم الالفاظ الاجنبية وجعلها مثل الالفاظ الاصيلة فيها ، فكلمة فيلسوف كلمة يونانية مركبة ومعناها الاول محب الحكمة ، دخلت الكلمة العربية مع عدد كبير من ألفاظ الحضارة والثقافة اليونانية ، وعرفتها العربية فى عصر الحضارة الاسلامية ، ولكن العربية لم تكتف باستخدام الكلمة بل كونت منها كلمات جديدة ، صاغت الفعل تفلسف وصاغت كلمة فلسفة وكلمة المتفلسفة ، وكل هذه الكلمات صيغت وفق الضوابط العربية من المادة الاجنبية . هذا وقد دخلت معظم الالفاظ اليونانية الى العربية عبر اللهجات الآرامية التى سادت الشام والعراق قبل الاسلام ، ولاسيما السريانية التى حملت ثقافة اليونان الى العرب .

وبجانب هذا فهناك عدد كبير من الالفاظ الآرامية الدخيلة فى العربية ، ان حياة البادية القديمة لم تكن تعرف زراعة التفاح أو التوت أو الجميز أو الحمص أو الخوخ أو الرمان أو الفستق ، لم تعرف البادية هذه الثمار الا عن طريق المناطق الزراعية فى الشام

والعراق وكانت هذه المناطق آرامية ، وعندما تعربت هـذه المنـاطق احتفظت بهذه الكلمات للتعبير عن تلك السلع ، وكل هـذه كلمات آرامية استقرت فى العربية ، هذا ولم تعرف حياة البدو البيوت المشيدة بالاحجار ولذا فلم يعرف العرب كلمة لبنة فى الشعر الجاهلى ودخلت مع الاستقرار فى الاقطار المفتوحة كلفظة آرامية الى العربية ، وشبيه بهذا كلمة باب فقد اخذت من الكلمة الآرامية « بابا » ، والألف الاخيرة أو بمعنى أدق الفتحة الطويلة الأخيرة علامة التعريف الآرامية ، ومعنى الكلمة الآرامية : شق ، فراغ ، خرق ، قطع ، قسم . وقد دخلت هذه الكلمة اللغة العربية بصيغتين ، باب وبابه (نقلا عن بابا) ولها فى العربية نفس المعانى : فهذا باب البيت وهذا باب للخروج من المأزق، وهذا باب في كتاب ، هذا وقد استخدم ابن دانيال في خيال الظـل مصطلح « بابه » بمعنى القسم او الفصل . وكل هذا يرجع الى الكلمة الآرامية «بابا» ، ان الكلمات الآرامية الدخيلة في العربية كثيرة متنوعة وكثير من الالفاظ دخل العربية من اليونانية عبر الآرامية ، ولذا فدراسة الآرامية تفسر لنا كثيرا من جوانب تاريخ المفردات العربية .

كان شـأن الالفاظ القبطية فى مصر شـبيها بالآرامية فى الشام والعراق ، ولذا فقد دخل اللهجة العربية فى مصر عدد كبير من الالفاظ القبطية ، فأسماء الشهور القبطية توت وبابه يعرفها كل فلاح فى مصر ، كما يعرف كل فلاح سورى ايلول وحزيران وشباط ، فأسماء الشهور المتداولة فى العراق والشام عرفها الاراميون بنفس الشكل والترتيب كما عرفت مصر في العهد القبطى توت وبابه وهتور وكيهك وبرمودة وبرمهات . وهناك الفاظ قبطية كثيرة ما تزال تعرفها لغة الحديث اليومى فى مصر مثل برسيم ، بقوطى ، بورى ، حنطور ، هوش ، هلوس ، هجص ، مهياص ، ننوس ، شـلوت ، واحة ، طاش ، وروره ، وهذه الكلمات تتناول الزراعة مثل برسيم ، ورور ، بقوطى أو الحياة اليومية والسلوك .

ويطول بنا القول لو تحدثنا عن كل العناصر الاجنبية التى دخلت الاستخدام اللغوى فى المجتمع العربى ، ولكنا نكتفى ببعض اللغات ٠ فالتركية كانت لغة الطبقات الحاكمة اجتماعيا وأثر هذا بأن دخلت بعض الالفاظ التركية الى لغة الحديث فى العالم العربى ، فكلمة طظ (طوز) معناها ملح أو تافه أو تراب وهى تركية وكلمة طاسلاق ومعناها فعل بسرعة ودون عناية دخلت العربية من التركية فأصبحت في الحديث اليومى (طسلأ) وأصبح هذا الفعل متصرفا مثل باقى أفعال اللهجات العربية. ويعرف أبناء الشام كلمة بلش كفعل بمعنى بدأ والواقع أن هذه الكلمة من الأصل التركى بأشلامق بنفس المعنى وقد اختصرت الكلمة وحدث فيها قلب مكانى بأن تبادلت اللام والشين مكانيهما على طريقة أرانب أنارب فأصبح ب ش ل ـ ب ل ش وقد استخدمت الكلمة كما يستخدم أى فعل فى اللهجات العربية فى الشام فى مختلف التصريفات ٠

وهناك الفاظ دخلت فى شكلها التركى رغم كون بعض عناصرها من أصل عربى فنحن نعرف السلاملك وهو مكان السلام فى القصور حيث كان الجنود يصطفون لتحية الباشا ، والكلمة مركبة من كلمة سلام العربية والمقطع لك فى التركية وهو يفيد المكانية ، فالسلاملك مكان السلام والحرملك مكان الحريم والسلاحلك مكان السلاح . وهناك الفاظ صيغت فى العهد التركى فى مصر من عناصر فارسية فنحن نعرف مدرسة المبتديان بالقاهرة وقد اسست فى القرن الماضى حاملة هذا الاسم ، وكلمة المبتديان ذات نهاية فارسية خاصة بالجمع ، وعلى هذا فهى مدرسة المبتدئين ، وما زلنا نستخدم عبارة كبير الياوران ولا ننزعج من استخدام الالف والنون في المضاف اليه ، وهذا لأن كلمة الياوران ليست الا جمعا ، والجمع هنا بالنهاية الفارسية آن ، وقد كانت الفارسية لغة يعرفها المثقفون فى الدولة العثمانية وكانت تدرس كلغة كلاسيكية فى معاهد العلم فى مصر فى القرن الماضى حتى دخول الانجليز ٠

كانت التركية أيضا المعبر الذى انتقلت عليه الفاظ أوربية مختلفة

الينا ، فنحن نعرف كلمة وابور وأصلها كلمة Vapoure ، فكيف تحولت الـ V الى واو ؟ الواقع ان هذا يفسر عن طريق استخدام الترك للخط العربى ، فقد عبروا بحرف الواو عن صوت V فى لغتهم فاذا أرادوا كتابة كلمة تركية أو أجنبية بها صوت V كتبوها باستخدام الواو ، وعلى هذا فقد كتبوا كلمة وابور هكذا ونطقوها كما لو كانت « فابور » ثم انتقلت الكلمة بصورتها المكتوبة الى العربية فنطقت «وابور» أو اعتقد المتحدث العربى آنذاك أن أصلها واو لم يستطع التركى نطقها، ومن ثم دخلت الكلمة العربية بالواو وشبيه بهذا ما نراه في كتب القرن التاسع عشر عندما يكتبون اسم فينا بالواو . أى وينا ، وهذه الظاهرة تفسر لنا وجود بعض أسماء الاعلام فى العربية ، لقد أخذ الترك عن العرب اسم « توحيده » ، ولكنهم نطقوا الواو كما لو كانت ف V ، ولم ينطقوا بصوت الحلق الحاء فهو لا يوجد فى لغتهم ، لقد نطقوا كلمة توحيدها كما لو كانت تفيده ، ومن هنا ظهر فى العربية اسم جديد هو تفيده .

وهكذا عاشت العربية وتطورت بنيتها فى تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والحضارية والسياسية والدينية التى سادت فى المجتمع العربى عبر التاريخ .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

(فرع الساحل)

ملتزم التوزيع
فى الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ ـ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢	القاهرة
٢ ـ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٦	القاهرة
٣ ـ فرع ميدان عرابى	٥ ميدان عرابى	٤٦٣٨٣	القاهرة
٤ ـ فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧	القاهرة
٥ ـ فرع الجمهوريه	٢٢ شارع الجمهوريه	٩١٠٧٤٢	القاهرة
٦ ـ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهوريه	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ ـ فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ ـ فرع الجيزه	١ ميدان الجيزه	٨٩٨٣١١	القاهرة
٩ ـ فرع أسوان	السوق السياحى	٢٩٣٠	اسوان
١٠ ـ فرع الاسكندريه	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥	الاسكندريه
١١ ـ فرع طنطا	ميدان الساعه	٢٥٩٤	طنطا
١٢ ـ فرع المنصوره	ميدان المحطه		المنصورة
١٣ ـ فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركه خارج الجمهوريه العربيه المتحده

١ ـ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدى العربى رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ـ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ـ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ـ عبد الرحمن الكيالى	شارع ٢٩ آيار ـ دمشق	سوريا
٥ ـ الشركه العربيه للتوزيع	ص ب رقم ١٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ ـ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ـ بغداد	العراق
٧ ـ رجا العيسى	وكالة التوزيع ـ عمان	الأردن
٨ ـ عبد العزيز العيسى	ساو للتوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ـ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ـ مكتب الوحده العربية	شارع عمرو بن العاص ـ ليبيا	بنغازى
١١ ـ محمد بشير الفرجانى	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ـ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ـ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ـ المكتبة الوطنية	المنامه ـ الخليج العربى	البحرين
١٥ ـ مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ ـ عبد الله حسين الرستمانى	المكتبة الاهليه ص.ب ٢٦١	دبى/عمان
١٧ ـ المكتبة الحديثة	ص. ب ٢٧	مسقط
١٨ ـ أحمد سعيد حمدد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ـ مكتبة دار القلم	شارع عبد المغنى ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ـ على ابراهيم بشير	ص. ب ٨٢	اسمرة
٢١ ـ عبد الله قاسم الحرازى	ص. ب ١٧١٤	اديس ابابا
٢٢ ـ مكتبة سنتر	ص. ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ ـ عبد الله عامر محمد	ص. ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ـ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ـ المكتب التجارى الشرقى	٤٠ ش كندهار ص. ب ٢٢٠٥	سنغافورة
٢٦ ـ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ـ مكتبة الفجر		وادى مدنى
٢٨ ـ زكى جرجس بطليوس	ص.ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ـ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ٤٨٠	بور سودان
٣٠ ـ عوض الله محمود دبورة	مكتبة دبورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ ـ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢٤٥	وادى مدنى
٣٢ ـ مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستى

أسعار البيع للجمهور فى الدول العربية

سوريا ٣٠ قرش سورى ـ لبنان ٣٠ قرش لبنانى ـ الأردن ٣٠ فلس ـ العراق ٣٠ فلس ـ الكويت ٤٠ فلس ـ السودان ٣٠ مليم ـ ليبيا ٣٠ مليم ـ قطر ٥٠ درهم ـ البحرين ٥٠ فلس ـ عدن ٧٥ سنت ـ أديس أبابا ٣٠ سنت ـ اسمرة ٣٠ سنت ـ الجزائر ٥٠ سنتيم.

المكتبة الثقافية

أول مجموعة من نوعها
تحقق اشتراكية الثقافة
تيسر لكل قارئ أن يقيم
فى بيته مكتبة جامعة
تحوى جميع ألوان المعرفة
بأقلام أساتذة ومتخصصين

يشرف على السلسلة
الدكتور شكرى محمد عياد

●

العــدد القادم

بلزاك

حياته وأدبه

بقــلم

دكتور أنور لوقا

مطابع دار الكاتب العربى
فرع الصحافة



الدكتور محمود فهمى حجازى

* تخرج سنة ١٩٥٨ فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وحصل من كلية الفلسفة بجامعة ميونيخ سنة١٩٦٥ على الدكتوراه فى علم اللغات السامية المقارن مع مرتبة الشرف .

* اشترك فى اعداد : القاموس الألمانى العربى – ٠٠٠ر١٢٠ مادة ، وله أبحاث منشورة باللغة العربية وباللغة الألمانية فى علم المأثورات الشعبية وعلم اللغة والساميات ، ظهرت فى هولندا و ج.ع.م .

* يشغل الآن وظيفة مدرس علم اللغة بكلية الآداب بجامعة القاهرة .